INSTITUT DU MONDE ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

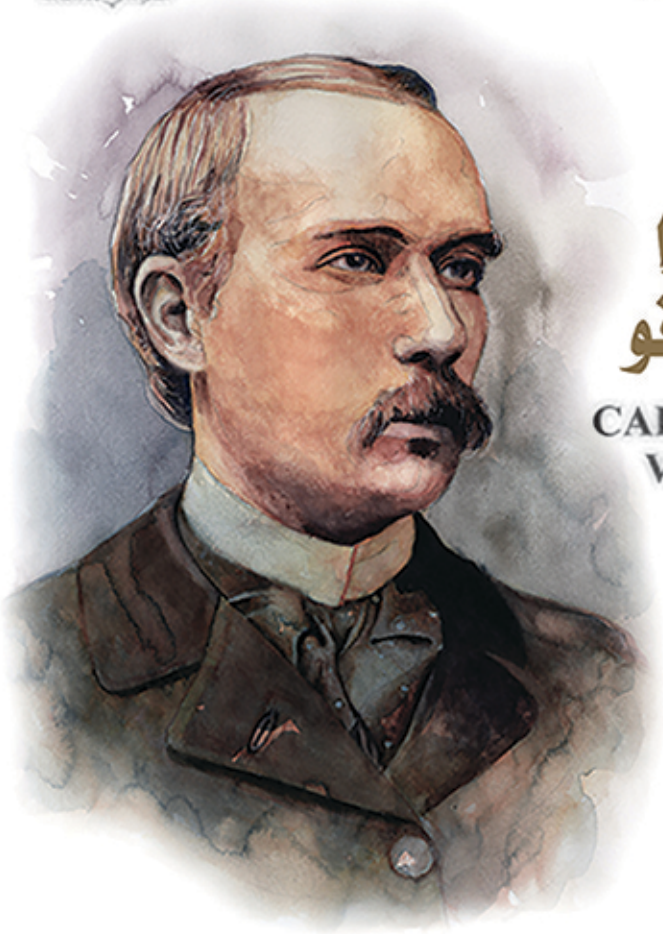

كارا دي فو

CARRA DE VAUX

عبد القادر بوعرفة

100 كتاب وكتاب

13

كارا دي فو

الكتاب : كارا دي فو
المؤلف : **عبد القادر بوعرفة**
الطبعة : الأولى 2020
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2019MO5755
الترقيم الدولي : 978-9920-627-17-7

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

كارا دي فو

عبد القادر بوعرفة

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبـــة 7

مقـدّمة 9

كارا دي فو سيرة رجل هام بالشرق..... 11

كتاب "مفكرو الإسلام" قراءة ونقد..... 20

نصوص مختارة..... 95

شهادات وانتقادات..... 120

خاتمـة 125

المصادر والمـراجع 126

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

مقدمة

البّارون بيرنارد كارا دي فو(*)؛ رحّالة ومفكر موسوعي، وأحد أهم رجالات الاستشراق الفرنسي في القرنين التّاسع عشر والعشريـن، سـاهمت أعماله المُمَيّزة في التعريف بالحضارة الإسلامية تعريفًا علميًا إلى حد كبير ومعقول جدًا، وبيّنت في مجملها أسس الدّيانة الإسلامية من خلال العبادات والمعاملات والاعتقادات.

كما قام بدراسة أعمال ثُلة من الفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ الإسلامي العريق، كالغزالي وابن سينا، مُقدمًا بذلك بعض النّماذج المُشرقة، التي تركت أثرًا بليغًا في الحضارة الإسلامية والغربية على السّواء، وإن لم تخلُ كتاباته في مجملها من بعض الأحكام المُسيئة والمُنتقصة، كما سنوضحه في المبحث النقدي.

يعتبر **كارا دي فو** مؤرخًا للعلم بامتياز؛ إذ قدم الكثير من العلوم الإسلامية وعرف بها تعريفًا يليق بمكانتها في تاريخ العلوم. كما ساهم أيضًا، في إبراز أهم الاكتشافات العلمية العربية والإسلامية.

(*) Camille Marie Bernard Carra de Vaux Saint-Cyr.

ومن ناحية أخرى، كان ضليعًا في مجال مقارنات الأديان، وخاصة اليهودية والمسيحية والإسلام، مما مكنه من معرفة التداخل بين الدّيانات، وكذا رصد أهم نقاط التناقض والاختلاف، وربط النصوص المشتركة بينها ربطًا تاريخيًا وثيولوجيًا.

حاول قدر الإمكان تقديم رؤية موضوعية عن الإسلام ومذاهبه، حيث كانت له مواقف جد مهمة ورائدة، ساهمت في إزاحة الكثير من الأحكام المُشوهة والمُزيفة عن الإسلام والمسلمين، والتي رسمها المستشرقون الأوائل بالخصوص.

وبالرغم من أهمية أعماله وقيمتها التاريخية والعلمية، وقع، كغيره من المستشرقين، في هنات وأخطاء تاريخية ومعرفية، وقدم بعض الأحكام، على قلتها، لم تكن عادلة ولا متطابقة مع روح الإسلام وتاريخه.

ثـار عليـه كثير من بني جلدته نظرًا لمواقفه المعتدلة والمنصفة لتاريخ الإسلام، واتهموه بتهم لا تليق بشخصية علمية مرموقـة، خاصـة وأنـه حـاول قـدر الإمكان تقديم الإسلام وحضارته تقديمًا موضوعيًا، متجاهلاً الدّراسات المغرضة التي قدمها كثير من علماء فرنسا وفلاسفتها، وخاصة نقده اللاذع لكل من أرنست رينان Ernest Renan (1823-1892)، ولويس ماسينيون Louis Massigmon (1883-1962).

سيرة رجل هام بالشرق

ولد البارون كاميل ماري بيرنارد كارا دو فو في 3 فبراير 1867[1]، بمنطقة بار سور أووب (Bar-sur-Aube) بفرنسا. عُرِّف في القامـــوس الفرنسي على أنه:" **مختص في الإسلاميات (Islamologue) وَضْعي (Positiviste) مسيحي. ينحدر من عائلة نبيلة موالية للملكية الدستورية**"[2].

ترعرع في أسرة ذات مكانة اجتماعية وسياسية راقية، فالأب البارون ماري فرانسوا ألبرت كارا دي فو (1833-1884) كان قاضيًا، والعم قنصلاً بإحدى دول الشرق، أما جده ألكسندر كارا دي فو الأول Alexandre Carra de Vaux (1802-1890)، فكان ذا مكانة دينية راقية في الوسط الفرنسي الكاثوليكي، واشتهر بكتاباته الفلسفية والدينية، كما تجمعه قرابة عائلية مع الشاعر والسياسي الفرنسي ألفنسو دو لامارتين Alphonse de Lamartine (12 أكتوبر 1790-28 فبراير 1869).

---

(1) Henry Carnoy, **Dictionnaire biographique international des écrivains**, p. 254.

(2) POUILLON François et autres, **Dictionnaire des orientalistes de langue française**, Editions KARTHALA, 2ed, Paris, 2012, p. 181.

ألف جده ألكسندر سبع رسائل؛ أشهرها:

- الملكية التمثيلية القائمة على السيادة العقلانية (La monarchie souveraineté rationnelle représentative basée sur la)،
- إيدوكسو (العبقري)، أو رجل القرن التاسع عشر (Eudoxe, ou L'Homme du dix-neuvième siècle)،
- أسباب الواجب (Raisons des devoirs)،
- دراسات تاريخية حول المسألة الرومانية (Étude historique sur la question romaine)...

ويبدو جليًا بأن جدَّه الإسكندر أثر فيه تأثيرًا أكثر من والده البارون، خاصة في مجال الكتابة والإبداع، وقد فاق جده تأليفًا وتنوعًا فيما كتب.

وقد حصل على شرف النبل أيضًا من جهة أمه، فهي السّيدة كاميل برنتي (Camille Pernety) ابنة المارشال جوردن Victor PERNETY.

ترعرع في شبابه بقلعة ريو (Rieux)، وهي آخر ما تبقى للعائلة بعد الثورة، وهي عقار عائلي مُتوارث، كان الشاعر **لامارتين** يزوره من وقت لآخر، وقد ذكر ذلك في كتابه (الاعترافات).

تعلم علومه الأولى بمسقط رأسه، حيث أتقن اللغة الفرنسية، وتعلم اللغة العربية أيضًا، تخرج من ثانوية ستانيسلاس (Stanislas) بامتياز سنة 1885، ثم التحق بالمدرسة التقنية (polytechnique)

سنة 1986. وحين تخرج من المدرسة، كرس حياته للخدمة العمومية والرحلات.

كان البارون من عشاق التّرحال والسّفر، خاصة في فترة شبابه، حيث كان مولعًا بالرحلات البعيدة. قام بعدة رحلات مع رفيقه بوغانفيل Bougainville، الأولى كانت سنة 1891، والثانية سنة 1897، وقد كتب بعض مذكرات رحلاته، وسمها بـــ "رحلة إلى جزر مالوين"[1]، كما رافـق الأميـــر نابليون جيروم بونابرت (Napoléon-Jérôme Bonaparte) إلى إيرلندا وأمريكا، حيث كتب عن هذه الأخيرة، وبيّن فيها دفاعه المستميت عن الحرية السياسية، والعمل، وأيضًا عن مسألة التربية والدين.

أما رحلاته إلى آسيا الصغرى، لأجل التبشير ونشر اللغة الفرنسية، فقال عنها كاروني هنري: "**الرحالة، البارون كارا دي فو، كان لا يهدأ حتى يتعرف على بلدان مجاورة لفرنسا، حملت تحقيقاته جانبًا عن آسيا الصغرى، وعن أمريكا من جانب آخر. زار أثناء رحلته لآسيا الصغرى عدة مؤسسات فرنسية، واستطاع أن يرى عن كثب أنشطة المبشرين وجهودهم الكبيرة في تطوير تأثير اللغة الفرنسية، وزار عدة مراكز مثل سكتورى، سمرنا، قونيا، براغورا**"[2].

(1) Henry Carnoy, **Dictionnaire biographique international des écrivains**, Vol I, p.255.

(2) Ibid., p. 256.

حين بلغ ثلاثة وعشرين عامًا عُيّن مدرسًا للغة العربية بالمعهد الكاثوليكي بباريس، سنة 1890، وقد مكّنه تدريس اللغة العربية من تعميق معارفه ومداركه في التراث الإسلامي، كما استطاع أن يُتقن اللغة العربية إتقانًا من خلال مهنة التعليم، التي ساعدته فيما بعد على قراءة القرآن وتاريخ الإسلام الثقافي والحضاري. تم تعينه لاحقًا مدير الدارسات العليا للقسم الرابع.

ويبدو أن الشاب كانت له طموحات سياسية أيضًا، حيث شارك في انتخابات عمدة مدينة بانسي (Pansey)، التي فاز فيها، سنة 1892، حيث قدم جملةً من المشاريع المهمة، كان أبرزها مشروع الاتحاد الزراعي.

شارك في تنظيم عدة ملتقيات وندوات علمية، خاصة سلسلة المؤتمرات الدولية الخاصة بالكاثوليكية، وكان أشهرها الملتقى المنعقد سنة 1891 بباريس، والمؤتمر الذي عُقد ببروكسل سنة 1894[1].

كما شارك في تنظيم الملتقى العالمي لتاريخ الأديان، والملتقى الثاني حول التاريخ المقارن سنة 1900.

ونظرًا لنشاطاته الفكرية، خاصة في مجال الأديان وتاريخها، تم تعينه عضوًا في هيئة تحرير مجلة العلوم الدينية (Revue sciences d'histoire générale des).

(1) Henry Carnoy, **Dictionnaire biographique international des écrivains**, p. 256.

وشارك بفعالية واحترافية في إنشاء عدة مجلات علمية، نذكر منها المجلة الآسيوية (Journal asiatique)، وحوليات الفلسفة المسيحية (Annalesde philosophie chrétienne)، ومجلة الكوربيس (La Revue biblique) المختصة بمراجعة الكتاب المقدس.

كانت له ميول موسيقية، خاصة الموسيقى العربية، حيث شارك مع رودولف إيرلانجير Rodolphe d'Erlanger في فعاليات مؤتمر الموسيقى العربية الذي نظمته القاهرة، في عهد الملك فؤاد الأول، عام 1932.

ترك تراثًا علميًا زاخرًا، نصنفه مرتبًا ترتيبًا تاريخيًا على النّحو الآتي:

1- المؤلفات

- العلاقات الموسيقية (رسالة بولس الرسول إلى شرف الدين)، المطبعة الوطنية، باريس، 1891.
- الرياضيات وعلم الفلسفة، باريس، 1891.
- محاضرات في اللغة العربية، باريس، 1891.
- الغزالي: رسالة إحياء علوم الدين (Gazâli. Le traité de la rénovation des sciences religieuses)، A. Picard، باريس، 1891.
- المجالات السماوية وفقًا لنصير الدين الطوسي، مطبعة Gauthier-Villars، باريس، 1893.

- الميكانيكا أو المصعد، ترجمة: كوستا بن لوقا، المطبعة الوطنية، باريس، 1894.
- الإسطرلاب الخطي أو العصا (الطوسي)، المطبعة الوطنية، باريس، 1895.
- دراسة التاريخ الشرقي (الإسلام والعبقرية السامية والعبقرية الآرية)، H. Champion، باريس، 1897.
- المحمدية (Mahométanisme)، H. Champion، باريس، 1898.
- ابن سينا (Avicenne)، F. Alcan، باريس، 1900.
- الفلسفة المضيئة (حكم الإشراق) بعد السهروردي المقتول، المطبعة الوطنية، باريس، 1902.
- الغزالي (Gazali) ، F. Alcan، باريس، 1902.
- أجهزة تعمل بالهواء المضغوط والآلات الهيدروليكية، مطبعة G. Klincksieck، باريس، 1902.
- الإسلاموية في مواجهة الحضارة الحديثة، باريس، F. Alcan، 1905.
- لايبنيز ، مطبعة Bloud، باريس، 1907.
- نيوتن، مطبعة Bloud، باريس، 1908.
- عقيدة الإسلام، مطبعة G. Beauchesne، باريس، 1909.
- ليوناردو دا فينشي، مطبعة Bloud، باريس، 1910.

- اللغة الأتورورية: مكانها بين اللغات، H. Champion، باريس، 1911.
- مذكرات تاريخ العلوم، المطبعة الوطنية، باريس، 1917.
- مفكرو الإسلام، 5 مجلدات، P. Geuthner، باريس، 1921- 1926.
- مباحث ونصوص عن السينائية اللاتينية في حدود القرنين الثاني عشر والثالث عشر، باريس، 1934.
- جدول الجذور السامية العربية والعبرية/مقارنات، مطبعة G.-P. Maisonneuve، باريس، 1944.

2- التلخيصات

- تلخيص الساعات المائية لأرشميدس، مجهول المترجم (المجلة الآسيوية) باريس، 1891.
- تلخيص شرح الكرويات لتيودوسيوس (بتصحيح يحيى بن محمد المغربي) باريس، 1891.
- مختصر العجائب للمسعودي، باريس، 1898.

3- الترجمة

- ترجم رسالة صفة الأرغن البوقي لبرطوس، (مجلة الدراسات الأفريقية، 1908).
- ترجم القصيدة العينية لابن سينا: (هبطتْ إليك من السماء الأرفع) (المجلة الآسيوية، 9)، 1899.

- ابتداء الهجرة ـ تاريخ ابن سعيد الأنطاكي (ترجمته مع لويس شيخو وحبيب الزيات)، البطريركية الكسندريني أناليز، لوفان-بيروت، 1906.
- التحذير والمراجعة للمسعودي (ترجمة)، المطبعة الوطنية، باريس، 1896.
- حكايات الشعب المصري، ترجمها عن مختصر العجائب، 1898.

4- المجلات (المقالات)

- الرسالة الشرفية في النسب (لصفي الدين بن فاخر البغدادي) (المجلة الآسيوية)، باريس، 1891.
- صفة الزامر لأبولونيوس، لمترجم مجهول (المجلة الآسيوية) باريس، 1891.
- المجسطي لأبي الوفاء البوزجاني (المجلة الآسيوية) 1892.
- أسطورة الراهب بحيرا (ص 439-454)، مجلة الشرق المسيحي، باريس، 1897.
- حل عربي لمسألة المربعات السحرية (مجلة تاريخ العلوم)، 1948.

5- المحاضرات

- ألقى في 9 مارس 1896 محاضرة في صالون الببليوغرافية لإدانة مذابح الأرمن.

- ألقى محاضرة في عام 1898 في المعهد الكاثوليكي في باريس بعنوان الصهيونية ومعاداة السامية. (قضية دريفوس).
- ألقى محاضرة سنة 1900 بعنوان:

(Jérôme Salvador et James Darmesteter) بجمعية الدراسات اليهودية.

توفي البارون كارا دي فو بمدينة نيس الفرنسية سنة 1953، وقد عاش أحداث قرنين؛ كان القرن العشرين أشدهما ضراوة وقسوة. لقد كان بالفعل شاهدًا مخضرمًا على عصره، استطاع بأعماله الكثيرة أن يجعل الاستشراق يشق طريقًا جديدًا، الغاية منه معرفة الآخر معرفة حقيقيّة وصادقة.

وقد استطاع، بالرغم من بعض الهنات، أن يكتب بموضوعية واحترافية عن الشّرق وحضارته، وعن الإسلام وتراثه. وتُعد كثير من كتاباته من المراجع المهمة في الأبحاث الأكاديمية.

كتاب "مفكرو الإسلام"
قراءة ونقد

يُعتبر كتاب "مفكرو الإسلام" من أضخم الأعمال التي ألفها **كارا دي فو**، أخرجه في خمسة أجزاء، كل جزء خصصه لموضوع رئيس من تاريخ الإسلام الفكري والثقافي، وقد استغرق العمل فيه خمس سنوات (1921-1926)، حيث قدم رؤية متكاملة عن كثير من القضايا والمواضيع التي شغلت المفكرين في العالمين الغربي والإسلامي على السّواء، وقد ذكر دومينيك سورديل (Dominique Sourdel) في مقدمته لطبعة 1984، بأن سلسة "مفكرو الإسلام" لكارا دي فو هي عبارة عن مؤلف شمولي تعميمي أكثر منه مؤلف معرفي، اتجه صاحبه نحو الاهتمام بالثقافة الإسلامية، التي يرغب الكثير في الغرب مَعرفتها بسهولة ومرونة. ولقد حقق هذا التوجه والاهتمام في الفترة الأخيرة كثيراً من المزايا؛ إذ عمق نظرتنا إلى الإسلام وحضارته. بيد أن بعض الدّراسات الاستشراقية المتخصصة والتقنية لازالت معقدة وصعبة، ولا تهم إلا شريحة محدودة[1].

(1) Vu : **Les penseurs de l'islam**, T I, Roth -Hotz Reprie, Lausanne, SUISSE; 1984, P .1 (Préface)

يبدأ **كارا دي فو** مؤلفه ذا الخمسة أجزاء بمقدمة بسيطة، ولكنها مهمة وسهلة، حيث ينبه في بداية الأمر إلى أن الاستشراق يفرضه الواقع، بحكم أن شريحة كبرى في الغرب تتطلع اليوم إلى معرفة الشرق معرفة حقيقة، نظرًا لكون الغرب تربطه عدة أواصر بالشّرق، نشأت بفعل عدة أشكال، أهمها الاستعمار والهيمنة، ففرنسا على سبيل المثال، التي تحتل جزءًا مهمًا وشاسعًا من الإمبراطورية الإسلامية، يجب عليها معرفة عمق العالم الإسلامي الذي تمارس عليه الهيمنة والتأثير، ويجب عليها أن تعرف روحه، وماضيه، وإيمانه، وغريزته العميقة، وأيضًا معرفة مجده القديم[1].

حاول كارا دي فو أن يبين أن المعرفة الاستشراقية في القرنين التاسع عشر والعشرين لم تعد كما كانت قديمًا، فلقد أصبحت اليوم أكثر تنظيمًا وتخصصًا، وأصبحت أكثر نشاطًا وحركية: " **كانت المعرفة الاستشراقية قوية ونشطة في السنوات الأخيرة، ونعلم أن بلدنا (فرنسا) قد حصل من خلال هذا النوع من الدراسات مكانة يستحقها، منذ ثلاثة قرون. أدت أعمال المستشرقين إلى الاطلاع على آداب واسعة النطاق، غنية، دقيقة، متنوعة، ومليئة بالتفاصيل والحقائق والأفكار.**

طبــع الشرقيون أنفسهم الكثير من الأعمال القديمة، وتلك المادة طُبعت الآن في أكبر ثلاث أدبيات إسلامية: العربية،

(1) Les penseurs de l'islam, TI, p.A.

التركية، والفارسية. دون أن نغفل عن الفروع الملحقة والضخمة"[1].

قسم المؤلف مؤلفه إلى خمسة أجزاء، سنذكرها تبعًا لتقسيمه، علمًا أننا لا نستطيع عرض كل الأجزاء في هذه الدراسة، بل سنعمل على التركيز على الجزء الأول تركيزًا مُهما، أما الأجزاء الأخرى، فنعمد إلى تلخيصها تلخيصًا مقتضبًا.

***

الجزء الأول: الملوك

قسمه إلى ثمانية فصول غير متناغمة، كل فصل خصصه لموضوع محدد، وأحيانًا مجرد تتمة للفصل الذي قبله، غلب عليه السرد التاريخي أكثر من التحليل والنقد، فكان أشبه ما يكون بالمقتطفات؛ إذ عمد إلى انتقاء الشخصيات والنصوص دون ذكر معايير الاختيار. حيث تحدث في هذا المجلد عن أهم خلفاء المسلمين الذي مثلوا السّيادة، ومارسوا السّياسة بشكل عملي ناجح.

الفصل الأول : الملوك (1)

نلحظ في هذا الفصل أنه حصر الخلفاء الكبار- حسب تعبيره- في ثلة، أغلبهم ينتمي إلى الفترة العباسية، خاصة المنصور، وهارون الرشيد، ثم المأمون، وقفز بقصد أو دون قصد عن الخلفاء الراشدين وملوك بن أمية. ولم يقدم كارا دي فو أي

(1) Ibid., p . A.

تعليل لهذا القفز التاريخي، وكأن السّياسة في الإسلام ارتسمت مع بني العباس فقط.

اختار البارون الملوك وفق الترتيب الآتي:

1- أبو جعفر المنصور (95هـ-158هـ/ 714م-775م)

بدأ رموز السيادة بأبي جعفر المنصور، ابن سلامة الأمازيغية؛ الخليفة العباسي الثاني، مؤسس الدولة العباسية الحقيقي، وهو الذي اختار بغداد عاصمة لدولته، استطاع أن يؤسس الدولة بسواعد الفرس، وخاصة الخراسانيين وأهل الكوفة والبصرة.

يصفه كارا دي فو بالخليفة المثقف، فهو رجل له اهتمامات بالأدب، والتاريخ، والفلك، والطب، والفقه، حيث استطاع أن يوثق صلته بمَعلمَيْن من معالم الفقه الإسلامي آنذاك: الإمام أبي حنيفة والإمام مالك، اللّذين سطع نجمهما في عهده.

يعتقد أن عبقريته السّياسية تكمن أول الأمر في اختياره لبغداد عاصمة لدولته، فبغداد مكانها الجغرافي جد ملائم وحيوي، فهي تقع بين نهرين عظيمين: دجلة والفرات، مما يجعلها محمية طبيعيًا من أي هجوم مفاجئ، كما أنها منطقة تؤمن الغذاء والماء، اللذين هما شرطا الاستقرار والأمن[1].

وتم بناؤها بطريقة تجعلها جد آمنة، إذ يحيط بها سور، ولها أربعة أبواب عظيمة كلها تؤدي إلى الشوارع الرئيسة، وكان

(1) Ibid. ; p.2.

من أشهر أبوابها باب خراسان، والمسمى باب الفلاح، الذي يطل على نهر دجلة[1].

2- هارون الرشيد (149هـ-193هـ/766م-809م)

أبو جعفر هارون بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، يجعله ثاني خليفة عباسي يمثل السّيادة، ويمارس السياسة في أعلى مستوياتها، رغم كونه الخليفة الخامس في الترتيب، فابن الخيزران استطاع أن يصل إلى الحكم وهو ابن الثانية والعشرين بسبب وفاة أخيه الأكبر الهادي مسمومًا. ويرجح كارا دي فو أن من سممه هي الجارية اليمنية أم هارون الرشيد، التي استطاعت بدهائها أن توصل ابنها الأصغر لعرش الدولة العباسية[2].

يعتبر هارون الرشيد أكثر الخلفاء ذكرًا في المصادر الغربية، وخاصة المصادر الألمانية والفرنسية، واستطاع كتاب ألف ليلة وليلة[3] أن يمنحه شهرة واسعة، مع وزيره جعفر وسيافه مسرور، بالرغم من أن الدارسين يعتبرون أن مُؤلِف ألف ليلة وليلة لم يكن يقصد تمجيد الخليفة، بل تشويهه من خلال ربطه بالمجون والفساد.

يعتبر كارا دي فو أن شهرة هارون الرشيد صنعتها الإنجازات العسكرية الكبرى، فلقد اهتم بتكوين جيش قوي،

(1) Ibid., p.3.
(2) Ibid., p.3.
(3) Ibid., p.9.

استطاع من خلاله أن يطرد الروم من الجيوب المتبقية على أطراف منطقة الشرق.

ويستشهد كارا دي فو على قوة هارون الرشيد العسكرية بحادثة نقفور، حيث كتب هذا الأخير رسالة لهارون: "**من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، إن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ (القلعة في الشطرنج)، وأقامت نفسها مقام البَيْدق (الجندي في الشطرنج)، فحملت إليك من أموالها ضعفي ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتدِ نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك**"[1].

فأجابه هارون الرشيد: "**من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قرأت رسالتك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام**"[2].

بعد هذا الرد الغاضب، خرج هارون الرشيد على رأس جيش كبير بلغ تعداده 135 ألفًا، وتوغل في آسيا الصغرى حتى وصل مدينة هرقلة عاصمة كورة بيثينيا، فحاصرها واستولى عليها عنوة سنة 806، بعد أن أحرقها بالمناجيق النارية. ويورد كارا دي فو نصًا[3] ينسبه لأبي نواس، يصف فيه واقعة هرقلة:

---

(1) Ibid., p .4.
(2) Ibid., p.4.
(3) القصيدة لأبي محمد المكي، وليس لأبي نواس. راجع كتاب: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الجزء الأول، ص: 161.

هوت هرقلة لما أن رأت عجبًا جو السماء ترتمي بالنفط والنار
كأن نيراننا في جنب قلعتهـــم مصبغـــات علـــى أسنان قصار

وأعقب الخليفة الرشيد، بعد تلك الواقعة، حملات متلاحقة بقيادة كبار قواده؛ أمثال داود بن عيسى، وشراحيل بن معن بن زائدة، ويزيد بن مخلد، هزمت جيوش البيزنطيين ودمّرت حصونهم، واضطرّ الإمبراطور نقفور إلى دفع الجزية.

انصب اهتمام الرشيد على البحرية، فطورها، مما أدى إلى فتح كثير من الجزر في البحر الأبيض المتوسط. كما فكر في شق قناة توصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط[1].

ويذكر كارا دي فو نقلاً عن المسعودي، كيف طوّر الرشيد التجارة والصناعة، وحَسَّن معيشة السكان، فأصبحت الدولة غنية آمنة، رغم المخاطر الداخلية والخارجية.

واهتم الرشيد بالحج، فسير بنفسه ثماني رحلات لمكة، فشقّ الطرق وعبّدها، وبنى مراكز الراحة والاستجمام على طول طرق الحج. وقد قامت زوجته زُبيدة[2] بحفر الآبار، وشق السّواقي بمكة، وعلى طول طريق الحجيج. وبنت الفنادق على حدود الشام.

واشتهر الرشيد بتشجيعه للأدباء والشّعراء، وخصص لهم مبالغ مالية معتبرة، فكان قصره يعج بالشّعراء، خاصة أبا النواس

(1) Ibid., p .6.
(2) Ibid., p.7.

وأبا العتاهية وغيرهما. كما كان أول خليفة لعب الشطرنج والنرد، ومارس رياضة الصولجان، ورمى بالنشاب، وجعل لها مباراة سنوية، وجوائز قيمة.

ويذكر كارا دي فو، بناءً على ما ذكره المؤرخ إينهارد Eginhard، بأن الرشيد أهدى الملك شرلمان Charlemagne هدايا ثمينة، من بينها ساعة مصنوعة من نُحاس مَطلي بالذّهب والفضة، تشير للوقت بناءً على عدد نقرات الكرات على الناقوس[1].

كما أسهم أيضًا في تنفيذ مشروع جده المنصور، والمتمثل في بيت الحكمة، الذي اكتمل في عهد المأمون.

عرج كارا دي فو على حادثة البرامكة، وذكر بعض اللقطات من مشاهد النكبة، كسجن يحيى وابنه الفضل، ثم قتل الوزير جعفر شر قتلة، وتقطيع جثته إلى أربعة أجزاء، حيث علق كل جزء على مداخل المدينة. ويبدو أن هذا التنكيل المريع مرده -كما يرجح كارا دي فو- إلى زواج جعفر من العباسة أخت الرشيد دون إذن الخليفة[2].

رغم النجاحات العسكرية والاقتصادية التي حققها هارون الرشيد، إلا أن سياسته أدت في بعض الأحيان إلى كوارث داخلية، وخاصة حين تذبذب في اختياره ولي عهده، فلقد وقع

(1) Ibid., pp. 18,19.
(2) Ibid., p. 8.

في حيرة بين ابنه الأمين ابن زبيدة، وابنه المأمون ابن الجارية مراجل، وإن كان الرشيد يميل إلى المأمون، فلقد قال فيه: "**وجدت فيه حزم المنصور، وتقوى المهدي، وإباء الهادي**"[1].

لكن الرشيد انصاع لرأي زبيدة، فعين الأمين وليًا للعهد، والأمر من بعهده للمأمون، على أن يكون المأمون واليًا مستقلاً على إقليم خرسان.

كانت العاقبة وخيمة، فحين مات الرشيد بطوس (مشهد حاليًا) وهو ابن الثالثة والأربعين، حدث ما لم يكن يتوقعه في حياته: التّطاحن بين الأخويين حول الملك، فكانت نهايته مقتل الأمين، وتولي المأمون الخلافة.

2- المأمون بن الرشيد (170هـ–218هـ/ 786م–833م)

يعتبر المأمون من أهم خلفاء بن العباس، كان شخصية عالمة ومثقفة، أحب قراءة كتب الأقدمين، فعمد إلى ترجمة كتب اليونان والفرس والهند، فانتعشت حركة الترجمة، وقرب إليه الفلاسفة والمتكلمة، فازدهر بلاطه بالجدل الكلامي، خاصة أنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة، يصفه كارا دي فو بقوله:" **في هذا العهد، كانت الفلسفة والجدل سمة العصر، كانت المدارس الكبرى المتشاركة في أصول الفكر الإسلامي حاضرة. فبرز المعتزلة، من خلال مداخلاتهم أمام الخليفة نفسه**"[2].

(1) Ibid., p.10.
(2) les penseurs de l'islam, T 1, p.18.

وشهد عهده كثرة الاستكشافات العلمية، كالإسطرلاب، وعدة آلات تقنية، خاصة بالجراحة، والري والفلك.... كما استطاع بدهائه ومرونته أن يستميل أغلب الطوائف الإسلامية، فلعب على وتر العلوية، والشعوبية، وعلى الجناح السني أيضًا.

يقول كارا دي فو: "إنه في أعوامه الأخيرة، حكم الدولة بنفسه، وأبطل عن معاونيه مناصب الوزارة وغيرها، وأصبح يسوس الدولة وحده، فكان إداريًا بامتياز، تمكن من الاطلاع على كل كبيرة وصغيرة، حتى في الأماكن النائية"[1].

3- صلاح الدّين الأيوبي (532 – 589 هـ/1138م–1193م)

في معرض حديثه عن فلسطين، تطرق البارون إلى عدة قضايا متشابكة، بدأها بأحداث مصر من خلال نظرة عامة عن الفاطميين ثم المماليك، ثم سرد أغلب التحولات الكبرى التي حدثت لفلسطين.

توقف عند صلاح الدين الأيوبي، الشاب الذي قاد الجيوش نحو معاقل الصليبيين، واستطاع أن يحرز عدة انتصارات تحت لواء عمه أسد الدين شريكوه، الذي كان قائدًا تابعًا لنور الدين زنكي.

بعد وفاة نور الدين زنكي توجه صلاح الدين نحو دمشق، وتزوج أرملة نور الدين، مما مكنه من تولي أمور السلطة. حيث

(1) Ibid. ; p.19.

استطاع صلاح الدين أن يفرض سيطرته على سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، وأن يقضي على الحكم الفاطمي، وبعد أن بسط نفوذه توجه نحو تحرير المدن الإسلامية من الصليبيين، وكانت أعظم تلك الانتصارات تحرير بيت المقدس عقب معركة حطين، التي يصفها كارا دي فو بقوله: "**فلسطين سقطت تحت أيدي صلاح الدين بعد هذه المعركة الحاسمة، والقدس عادت للإسلام. هذه المعركة الأخيرة تعتبر في أعين المؤمنين من أعظم أمجاد صلاح الدين. المساجد بالمدينة المقدسة، التي تم تحويلها إلى كنائس، تم رشها بماء الورد، وعادت كما كانت دور عبادة للمسلمين. وتم احترام كنيسة القيامة، وجميع المسيحيين من الطائفة اللاتينية اعتبروا أسرى، لكن سُمح لهم بالخروج من المدينة، وتزويد من دفعوا الجزية بأرزاق وحراس**"[1].

يرى كارا دي فو أن صلاح الدين مثّل السّيادة الإسلامية في أقوى معانيها، حيث أصبح معلمًا للمسلمين، وقد أضاف بأخلاقه النبيلة لشخصته سمعة عالمية، فلقد اشتهر بالتسامح وحماية المسيحيين بمصر وفلسطين والشام، كما كان عادلاً وشريفًا، وإداريًا بامتياز.

اقتبس البارون وصية صلاح الدين لابنه قبل مماته كمثال على الرجل العادل والحكيم، قال صلاح الدين وهو يوصي ابنه: "**أوصيك يا بني بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما**

(1) Ibid., p.22.

أمرك الله به، فإنه سبب نجاحك، واحذر من الدماء والدخول فيها، لا تقتل بالشبهة، لا تقتل بدون سبب، لا تقتل دون حاجة، فإن الدم لا ينام"[1].

وقبل أن ينهي الفصل الأول، ختمه بعنوان غريب "هلاكو هادم الخلافة"، حيث تحدث بإيجاز عن المغول وزعيمهم هلاكو Houlagou، وذكر ما فعله المغول بالمناطق الإسلامية، خاصة سوريا والعراق، التي تم حرقها وتدميرها بالكامل.

ورغم بربرية المغول وعدوانيتهم منقطعة النظير، إلا أنهم كانوا يحبون الأدب والموسيقى، والعلوم، واعتنقوا آخر الأمر الإسلام، وأقاموا بأذربيجان وتبريز، وصنعوا بعدها حضارة مغولية إسلامية[2].

***

الفصل الثاني : الملوك (2)

جاء الفصل الثاني تكملة للفصل الأول، ونقصد الحديث عن الملوك. في هذا الفصل اختار مجموعة من خلفاء الدولة العثمانية، الهند، ثم الدولة الفارسية، ورتبهم على النّحو الآتي:

1- محمد الفاتح (1429-1481)

يعتبر أعظم سلاطين الدولة العثمانية، تقلد الحكم بعد

(1) Ibid., p.27.
(2) Ibid ., p.34.

وفاته أبيه السلطان مراد الثاني سنة 1451، وكان عمره آنذاك اثنتين وعشرين سنة، استطاع أن يُنجز أكبر مجد تاريخي عثماني، تمثل في فتح القسطنطينية سنة 1452، بعد حصار مرير، قال عن فتحها كارا دي فو: "**لم يكن هذا الفتح مجرد صدفة، ولا تيسر بمجرد ضعف الدولة البيزنطية، بل أعده السلطان الشاب بكل دقة، مستعينًا بأعمال شاقة، منتفعًا بكل ما كان في عصره من العلم**"[1].

كان محمد الفاتح شخصية متسامحة أيضًا مع غير المسلمين، حيث حرص على بناء الكنائس، ويذكر كار دي فو الحوار الذي وقع بين محمد الفاتح ورسول ملك الصرب، الذي سأله: "**ما تصنع بديننا إذا كنت أنت المنتصر؟؟" فأجابه محمد الفاتح: "تُقام بجنب كل مسجد كنيسة يعبد قومك الله فيها**"[2].

2- سليمان القانوني (1494-1566)

كان سليمان من أعظم سلاطين الدولة العثمانية، حيث تفرد بالتشريع، حتى لُقب بالقانوني، تميز عهده بالحروب والانتصارات، والآداب والتشريعات، وقد كان شخصية رائعة ومتميزة: "**ومع ذلك يوجد شيء من اللباقة بشكل عام في شخصية سليمان، وقد تفتقت في عهده الآداب بشكل واسع، كما كانت الفنون أكثر ازدهارًا، إنه أحد أكثر الشخصيات الرائعة**

(1) Ibid., p.37.
(2) Les penseurs de l'islam, T1 ; p .40.

في القرن عندما تم تسمية الملوك الآخرين: فرانسيس الأول وشارلكان الخامس، وليون العاشر"[1].

اشتهر في حروبه ببناء الجسور، لكي يعبر الجيش بسهولة تامة، وخاصة في حملته على بلغراد Belgrade حين بنى جسرًا على نهر سافا Save، ويذكر كارا دي فو بأن نابليون بونابرت استلهم منه تلك الخطة، فنصب هو ذاته جسرًا على نهر الدانوب Danube سنة 1809.

لقد برع الأتراك في بناء الجسور وبسرعة فائقة، وهذا ما نراه متجليًا في جسر أوفن Ofen بمنطقة بشت Pesth.

كما طور العثمانيون المدفعية التي كانت تعتبر آنذاك سلاحًا فتاكًا، وقد جلبوا من دول أوروبية مدربين أكفاء، خاصة في القرن الثامن عشر.

كان سليمان القانوني محبًا للعدل والقانون، ولقد وضع جملة من القوانين تراعي حق الأقليات في الوجود، وحين وصله كتاب فرنسوا الأول يطالبه بعودة كنيسة القيامة للمسيحيين، أجابه السلطان بالرفض وفق الشريعة الإسلامية، لكنه وعده بضمان حقوق النصارى في التعبد بكل حرية: "**لقد أجيز لهم، متمتعين براحة تامة تحت جناح حمايتي السلطانية، أن يقوموا بطقوس دينهم وشعائره، والآن، إذ يقومون بكل أمن في بيوت عبادتهم**

(1) Ibid., p .42.

وفي أحيائهم، يُعد من المستحيل إصابتهم بأذى والجور عليهم في أي أمر كان"[1].

يذكر كار دي فو أن من أهم الإصلاحات القانونية التي قام بها السلطان سليمان القانوني، تلك التخفيفات في مجال العقوبات، وخاصة عقوبة الإعدام وقطع اليد، كما منع الثأر. بيد أن أحوال الأسرة لم تتغير عن الصورة النمطية[2].

كما يشيد كارا دي فو بمعاهدة "الامتيازات" التي وُقّعت بين الدولة العثمانية وفرنسا سنة 1535، حيث استطاعت فرنسا أن تستغل قوة العثمانيين ضد النمسا.

3- تيمورلنك (1370–1405)

انتقل كارا ي فو للحديث عن تيمورلنك، ولحد الساعة لا نعرف الطريقة التي يكتب بها كارا دي فو، فالقفز التاريخي، وعدم التناسق والتناغم سمة بارزة في كتاباته، مما جعل كتاب "مفكرو الإسلام" يفقد الطابع الفكري، فأغلب الشخصيات التي اختارها هي شخصيات قيادية وسياسية.

يمثل تيمورلنك المرحلة المغولية الإسلامية، وصل إلى الحكم سنة 1370، بعد أن سقطت مدينة سمرقند بيده، فأعلن نفسه ملكًا، وانتسب لجنكيز خان.

(1) Ibid., p .46.
(2) Ibid., p.47.

يبدأ كارا دي فو الحديث عن شخصية تيمورلنك من خلال عرض نصوص من سيرته المستوحاة من كتابين، الأول "النظم السياسية والعسكرية"، والثاني "المذكرات".

يصف تيمورلنك نفسه وصفًا مثاليًا، فهو خادم الدين، والرحيم العادل، وناشر الحسنات والفضائل، يقول عن نفسه: "**عندما أمسكت ميزان العدل، فإني لم أنقص ولم أزد حصة إنسان، وإنما وزنت كل شيء بالتّساوي، وقد أقمت العدل بين النّاس بجد، وميّزت بين الحق والباطل. وقد أطعت أوامر الله، واحترمت شريعته المقدسة، فأكرمت من أكرم، وفضلت أمور الدّين على أمور الدنيا. رحمت النّاس، ونشرت الفضائل بين النّاس، فبهذه الصّفات نلت محبة خلق الله**"[1].

يستطرد كارا دي فو في سرد بعض النصوص التي تُظهر تيمورلنك شخصًا رحيمًا وطيبًا، ويستحضر في الوقت نفسه الصورة العامة عنه في كتب التاريخ، فتيمورلنك رجل صلب ودموي، بنى أهرامات برؤوس البشر، وقتل من المسلمين ما لم يحص، فقد أرعب المدن الإسلامية كلها، فكأن التاريخ أعاد نفسه مرة أخرى، فهو لا يختلف عن شخصية هولاكو إلا من حيث كونه مسلمًا.

كان رجل حرب، وداهية عظيمًا، استطاع أن يهزم الجيوش، ويدمر المدن، ويأسر السلاطين، خاصة السلطان العثماني بايزيد الأول، بعد موقعة أنقرة سنة 1402.

(1) Ibid., p.49.

كان تيمورلنك ذا خبرة بعلوم الحرب، يقول عنه البارون: "**وكان العلم الحربي لدي تيمورلنك عظيمًا، وهو كمنظم للجيوش، قام بإصلاحات واختراعات مهمة، ومن ذلك أنه ترك لقائد كل فرقة عبء تجنيد رجاله وتموينهم، فحمل مجلس الشورى على استحسان ذلك، ويُرى أن ابتداع الزي العسكري الموحد مدين له أو لابنه السلطان محمد**"[1].

يبقى تيمورلنك ذلك السلطان الذي أرعب العالم الإسلامي والمسيحي على السواء، وكان غزوه لبلاد الإسلام قد عمل على تسريع الانحطاط والتخلف، وذهاب قوة المسلمين، وتسبب في مجازر رهيبة لم يسلم منها حتى الأطفال.

4- ملوك الهند

عرف الهنود ملوكًا كبارًا من العرق التتري والمغولي، خاصة في نهاية القرن العاشر الميلادي، وقد اشتهر منهم بالخصوص محمود الغزنويّ، الذي حِيكت حوله عدة أساطير. اشتهر عهده بالغزو والسّلب والنهب، وتحطيم الأصنام ونهب المعابد الوثنية.

وفي مقابل الهدم والنهب، سيبني بعاصمته أجمل قصر، ويشيد مسجدًا بالرخام. ويذكر كارا دي فو ولعه بالشّعر، كما كان يحيط نفسه بالعلماء والأدباء.

(1) Ibid., p.55.

كان في زمانه كل من البيروني والشاعر الفردوسي، ويبدو أنهما لم يحصلا منه على ما كانا يطمحان إليه، فهجاه الفردوسي ووصفه بأنه "**الملك الذي لا إيمان له ولا شريعة، الخالي من سمو الملوك . . . فلو كان أميرًا جديرًا بحسن الذكر لأكرم العلماء**"[1].

قال عنه البيروني بأن الهند زمن حكمه لم تعرف ازدهارًا للعلوم، ولم تلق منه تشجيعًا ولا تقديرًا.

5- ملوك فارس

اختار البارون الشاه عبّاس الأكبر (1571-1628) أنموذجًا عن حكام وسادة الفرس، ويعتبر من أشهر حكام الأسرة الصفوية.

اشتهر بحروبه الشّهيرة، خاصة مع البرتغال، وبنائه الجسور والمدن، والارتقاء بالتجارة والملاحة البحرية، يقول عنه كارا دي فو: "**قام عباس خلال حكمه بصلات ديبلوماسية مع كثير من دول أوروبا، وحاول أن يستميل أمراء أوروبا في قتاله مع الترك، فأرسل سفراء إلى بلاطات كثيرة، فاستقبل هو نفسه سفراء من إنكلترا وروسيا والبرتغال وإسبانيا وهولندا**"[2].

***

(1) Ibid., p.61.
(2) Ibid., p.79.

الفصل الثالث : المؤرخون العرب (1)

خصصه لمؤرخي العرب الكبار، وخاصة في الحقبتين الأموية والعباسية، حيث يعتقد كارا دي فو أن المؤرخين العرب لم تكن لهم الشهرة في الغرب التي كانت للفلاسفة والعلماء: "**ظل مؤرخو الشرق الإسلامي زمنًا طويلاً لا يتمتعون في الغرب بالشّهرة الكبيرة التي حظي بها علماؤهم وفلاسفتهم**"[1].

اعتبر النص التاريخي العربي نصًا غير علمي بالمعنى الإبستيمي، لخلوه من النقد والتحميص، فأغلب المؤرخين العرب مجرد جَمَّاعة للحوادث والأحداث، وقد بين البارون ذلك من خلال كتب المقريزي، والمسعودي، والطبري، فالكتابة التاريخية عندهم ولدَّت الجفاء لدى القارئ الغربي، نظرًا لطبيعة اللغة: "**ويأتي جفاء اللغة على الخصوص، فالجملة العربية تمتاز بالقصر والوثبة، والحدة**"[2].

حاول بعض المؤرخين، كابن مسكويه والبيروني، جعل التاريخ علمًا يبتعد عن الفن والإخبار، وذلك من خلال إدخال النقد والتحميص، إلا أن الجو العام لم يخدم توجهاتهم العلمية.

يبدو أن الطبري والمسعودي كان لهما الأثر الأكبر، بالرغم من وجود الكثير من المؤرخين العرب، باختلاف طوائفهم ومعتقداتهم.

(1) Ibid., p.83.
(2) Ibid.,p.85.

وقد استدل كارا دي فو على المسعودي لتبيان أهمية كتاب الطبري، الذي اعتبره المسعودي من أعظم المؤلفات التاريخية، لأنه جمع أهم آثار التاريخ الإسلامي، خاصة الصدر الأول، ومن جهة أخرى ربط التاريخ بالحديث والتفسير.

اعتمد الطبري على **الحوليات** كمنهج لتدوين التاريخ، غير أن هذا المنهج يمنع الذهن من التحليل والتركيب، ويقصي الأفكار العامة من الحضور، ويجعل التاريخ مجرد خبر لا روح له.

أما المسعودي، فاشتهر بكتابه "مروج الذهب"، وهو كتاب تاريخي هام، امتاز بالغرائبية والعجائبية، نظرًا إلى أن المسعودي ذاته كان يعيش المغامرة والترحال، فيعتمد في كثير من الأحوال على الخيال، وجمع الأساطير.

يتحدث كارا دي فو عن كتاب المسعودي الشهير "مروج الذهب"، حيث حظي بالاهتمام من قبل الغرب، وكان ذلك أول مرة بلندن، حيث ترجم الجزء الأول منه[1].

ويرى أن المسعودي يمتاز بالنقد رغم الطابع الغرائبي، فهو لا يذكر الأحداث فقط، بل يعلق عليها، وقد امتلك تلك الخاصية من ملازمته للفلاسفة والعلماء، ومجالسته لبعض الأقليات والأعراق، خاصة اليهود.

(1) Ibid., p.100.

يعد أحمد بن محمد بن يعقوب ابن مسكويه (320-421) مؤرخًا وفيلسوفًا، اشتهر برسائله في الأخلاق والسياسة، ومن أشهرها كتاباه "آداب العرب والفرس" و"تجارب الأمم".

كان مجوسيًا ثم أسلم، وفق ما رواه ياقوت الحموي(*)، ويذكر البارون أنه كان مُتعاطفًا مع تاريخ أمته الفرس أكثر من تاريخ العرب، وقد تأكد ذلك من خلال إغفاله سيرة النبي محمد في جل كتبه.

تميز أسلوبه في الكتابة بالمزج بين التاريخ والفلسفة والسّياسة، وكان ميالاً للنقد والنظر، ولخص ذلك كارا دي فو بقوله: "**وأسلوب ابن مسكويه مقتضب جدًا، وتزخر حكاياته في الجزئيات، ولكن مع نفاذ الروح الفلسفية، وانبعاث نفسية الرجالات والأفكار العامة من تلقاء نفسها كما يلوح، وكذلك كان ذا ذَوق كبير للفلسفة السّياسية ومَسائل الاقتصاد**"(1).

ينتقل بنا كارا دي فو إلى العصر الحديث، حيث اختار شخصية جُرجي زيدان (1861-1914)، ليقدمه كأنموذج معاصر، كتب عن التاريخ الإسلامي من خلال الأعمال الكبرى "**تاريخ التمدّن الإسلامي**" في خمسة أجزاء، ورواياته التّاريخية المشهورة،

(*) يعترض كارا دي فو على ما رواه ياقوت الحموي، لأن ياقوتًا لم يذكر المصدر الذي استقى منه الرواية.

(Les penseurs de l'Islam, T1 ; p.106)

(1) Les penseurs de l'Islam, TI ; pp.106, 1O7.

التي شملت كل الحقب، وخاصة الحقبتين العباسية والعثمانية.

يقدمه على أنه مُستشرق عربي، فهو من أصول سورية مسيحية(*)، أقام بالقاهرة: "**كان ينتمي إلى فريق علماء العرب الذين انتهجوا مناهج النقد الغربي، فطبقوها على دراسة آدابهم الخاصة، وتجدنا مَدِينين له بتاريخ مهم عن التمدن الإسلامي، الذي ترجم قسمه الخاص بالأمويين والعباسيين إلى اللغة الإنجليزية، حيث يُبين ببعض الأمثلة طريقة تحليل أحوال حكومة خلفاء بني العباس، وكيف يبرز خصائص سياسية ذلك الزمن**"(1).

***

الفصل الرابع : المؤرخون العرب (2)

تضمن الفصل الرابع الحديث عن مؤرخي العرب ضمن مرحلة الحروب الصليبية، واختار المؤلف الشام، ومصر، والأندلس كنماذج، مبتدئًا هذا الفصل بالمؤرخ ابن الأثير، الذي كان مواكبًا لدولة الموحدين بالمغرب ثم الأندلس.

يعتبر عز الدين أبو الحسن الجَزري الموصلي المعروف بابن الأثير(555-630) من المؤرخين المشهورين في الغرب، اكتسب

(*) جرجي زيدان ولد بقرية عين عنب في جبل لبنان، من أسرة جد فقيرة، كان أبوه حبيب زيدان يملك مطعمًا بساحة البرج ببيروت.

(1) Ibid., pp.115,116.

شهرته من خلال طريقة كتابته للتاريخ، فقد كان مؤرخًا موسوعيًا، نقل أخبار العرب ومن جاورهم من الأمم، واختص في أخبار المغرب الكبير، خاصة من خلال كتابه الموسوم بـ:"الكامل في التاريخ" الذي أرخ فيه للخليقة من عهد آدم عليه السلام إلى عهده، قال عنه البارون: "**ومن مزايا هذا العمل اشتماله على عدد كبير من الأخبار عن القسم الغربي من العالم الإسلامي، الذي كان على العموم معروفًا قليلاً لدى علماء العرب من المشارقة. وكان تاريخ ابن الأثير، المعروف بالكامل، قد طُبع، منذ سنة 1851 بليدا Leyde من قبل تُرنبرغ Tornberg في أربعة عشر مجلدًا**"[1].

ظهر في الشام مجموعة من هواة التأريخ في هذه الفترة الحرجة، أشهرهم الأمير أسامة بن منقذ الشيزري (488-584)، لم يكن مؤرخًا بل كان محبًا للتدوين، من أشهر كتبه: كتاب سماه "**الاعتبار**"، وهو عبارة عن مذكرات، كتبه بعد أن جاوز الثمانين حولاً، يروي فيه أحداث الحروب الصليبية، خاصة أنه كان أحد قادة صلاح الدين الأيوبي، يصفه البارون بقوله: "**نجد أثناء الحروب الصليبية كاتبًا جد جذاب، ولم يكن هذا الكاتب مؤرخًا بالمعنى المتعارف عليه، بل من الحق أن يُلحق بالمؤرخين، وهذا هو الأمير أسامة مؤلف المذكرات، وهذا النّوع من الكتابة كان محبوبًا عندنا، لكنه قليل الحظوة عند العرب، ولم يكن**

(1) Ibid.,p.122.

لدينا من العرب في هذا النوع غير سير قصيرة عن العلماء مكتوبة بأيدهم، كالتي انتهت إلينا عن ابن سينا والبيهقي.

هناك أحداث شخصية أدرجت من قبل المؤرخين في آثارهم، وعدد قليل من حكايات الرّحالات، وتعد كل سيرة طويلة كالتي كتبها أسامة عن نفسه، مثالاً منقطع النظير في هذه الآداب"[1].

ينتقل بنا البارون إلى المؤرخ أبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (672هـ-732هـ/ 1273م-1331م)، الذي تعرف إليه الغرب سنة 1854، بعد أن طُبع كتابه من قبل رسك، والموسوم "المختصر في أخبار البشر في التاريخ"، والمعروف عند جمهور الناس "تاريخ أبي الفداء".

اشتهر أبو الفداء بالسياسة والشعر والتاريخ، كما عرف بالفروسية والشجاعة منذ صغره. استطاع أن يعيد تأسيس المملكة الأيوبية بمدينة حماة، وكان سياسيا ناجحًا، شيد القصور والجوامع، وشق الطرق، وبنى المدارس، وشيد ضريحه قبل وفاته.

كان عالما ومؤرخًا، استفاد الغرب من علمه استفادة جمة(*)،

---

(1) Ibid ., p.131.

(*) قال عنه كراتش كوفسكي (عالم روسي): "إن كتابين عربيين فقط أثارا الاهتمام عند الغربيين أكثر من تقويم البلدان لأبي الفداء صاحب حماة؛ هما: القرآن الكريم، وألف ليلة وليلة." سمى علماء الفلك الأوربيون جبلًا في القمر باسم "جبل أبي الفداء"، اعترافًا منهم باكتشافه الذي وصفه في كتابه "الموازين". كما نقش الفرنسيون اسمه على جدران القاعة المخصصة للمحاضرات في الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس.

وخاصـــة كتابـــه في التاريخ وكتابه في الجغرافيا، والموســـوم بـ "تقويم البلدان".

استطاع أبو الفداء أن يختط لنفسه مكانًا رائعًا في التاريخ، سواء كسلطان أحسن تدبير مملكته، أو كعالم ترك أثرًا لا ينمحي في تاريخ العلوم، قال عنه البارون: "**بعد أن عاشَ أبو الفداء متمتعًا بالمجد وضروب العز، توفي سنة 732 بحماة، فدفن في الضريح الذي شيده لنفسه، كان محبًا للشعر، وكان الشعراء ينشدون شعرهم العادي، قال عنه ابن نباتة :**

كأنَّ ندى الملك المؤيد جادها فـأسفر نـوَّار الربى عن سبائك

مليكٌ إلى مغناه تستبق المنـى مسابقة الحجاج نحو المناسك(*)

وتجد لأبي الفداء عدا كتابيه المهمين : تاريخه وجغرافيته، كتابًا في الطب مكونًا من عدة مجلدات، وسمه بالكنَّاش، كما تجد له كتابًا اسمه الموازين"[1].

بعد أن جال في الشام والأندلس، انتقل البارون نحو مصر، فاختار شخصية أحمد بن علي المقريزي (764هـ-845هـ/1364م-1442م) المعروف بشيخ المؤرخين.

اشتهر المقريزي بالورع الديني، والدفاع عن السنة، ناصر

(*) يمدح بها الملك والمؤيد، ومطلعها:

تصرّمت الأيام دون وصالكِ فمن شافعي في الحب يا ابنة مالكِ

(1) Les penseurs de l'islam, TI, p.146.

في بداية شبابه المذهب الحنفي، لكنه تحول إلى المذهب الشافعي، فدافع عنه دفاع المتعصب.

كانت له آراء كلامية قليلة، اشتهر بكتابة التاريخ، وله في ذلك طرائق خاصة، امتاز بها عن غيره من مؤرخي عصره، ويرى بعض النقاد أن هذه الآراء لم تتضمن إبداعًا، بل كانت مجرد جمع وتركيب.

ترك المقريزي آثارًا كثيرة، أشهرها "السلوك لمعرفة دول الملوك"، يتحدث فيه عن تاريخ سلاطين مصر والمماليك، وكتاب "خطط المقريزي"، وهو خاص بوصف القاهرة وأحيائها، دون أن ننسى مؤلفه الشهير "اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء".

يقلُّنا المؤلف إلى الأندلس، ويختار شخصية مشهورة في الغرب، إنه أحمد بن محمد المقري التلمساني (986هـ-1041هـ/ 1578م-1631م)، صاحب "نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب"، الذي نشر في الغرب سنة 1855، من قبل المستشرق الهولندي دوزي.

اهتم المقري بتاريخ الأندلس والمغرب بالخصوص، وكان كثير الكتابة في شتى الميادين، فله عدة أعمال؛ أشهرها: الرحلة إلى المغرب والمشرق، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (خمسة أجزاء)، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس، حسن الثنا في العفو عمَّن جنى، عرف النشق في أخبار دمشق.

قال عنه البارون: "**كان زمن المقري في التاريخ متأخرًا كما يلاحظ، ولكنه عريق، واصل نهج كبار مؤرخي العرب، وهو مثلهم متفتح الذهن، لديه ذكاء فضولي وجاد في الوقت نفسه، وصاحب أسلوب دقيق، روايته غنية بالحكايات والجزئيات والتواريخ.**

يُنكر "دوغا" Dugat عليه نقص التركيب، فيظهر لي أن هذا العتاب بعيد عن الصواب، ومهما يكن من أمر، فإنه قليل الأهمية في نوع الجمع الذي اختاره المؤلف، ويكون المقري مُترجمًا للأحوال أكثر منه مؤرخًا"[1].

***

الفصل الخامس : مؤرخو الفرس والمغول

يعتقد البارون **كارا دي فوا** بأن الشاعر الفارسي الكبير الفردوسي يُعد من أشهر المؤرخين الفرس، من خلال كتابه "**تاريخ الملوك**"، والمعروف بشاهنامة، فكتابه عرض تاريخي لملوك فارس منذ النشأة إلى غاية ظهور الإسلام، كما يعرض أهم المخترعات والأدوات الفارسية، ويعتقد المؤلف: "**أنه لم يُبدع شيئًا جديدًا، فالحكايات التي تتألف منها ملحمته الشعرية كانت موجودة ومجموعة قبله، فهو لم يزد على أن قام بتزيينها بالصور، والتعبير عنها بكلام رائع، لذا فهو مأثوري بمقدار ما هو شاعر كما هو في الواقع**"[2].

(1) Ibid. ; p.160.
(2) Ibid . ; p .174.

المؤرخ الثاني الذي اختياره كارا دي فو هو حمد الله بن آتابك، المعروف بالمستوفي القزويني (682هـ-750هـ/1281م-1349م)، الذي كان كاتبًا للسلطان أولجايتو (خُدا بَنده)، ألف مجموعة من الكتب، أشهرها "نزهة القلوب".

غلب على أرض فارس الشعراء أكثر من المؤرخين، فتحول الشعراء إلى مؤرخين، وكان لهذا التّحول أثر على طريقة كتابة التاريخ، حيث كثر التصوير والتزيين اللفظي، وذكر العجائب والغرائب، وكثرة الأمثال والحكم، وهو ذاته ما نلحظه في شخصية المستوفي: "**تاريخ المستوفي كثير الجفاف، والاختصار، مما يدعو للأسف. لكنه بالرغم من ذلك يشتمل على عدد من الصفحات الممتعة والرائعة. بيد أن المؤرخ كان يملك حسًا نقديًا**"[1].

كان حمد الله جغرافيًا أكثر منه مؤرخًا، فوصفه للمدن والأبواب والمناطق ينم عن غزارة علم، ويكشف لنا درايته وإحاطته بالتضاريس والأماكن.

كما يُعد برهان الدين محمد مِيرْخَوَنْد (837-903) من أبرز مؤرخي فارس، وهو شاعر أكثر منه مؤرخًا: "**ولفارس مؤلف شعبي يذكر كثيرًا، وهو مِيرْخَوَنْد الذي تعتبر أعماله ذات أهمية بالغة، ولكننا لا نعده مؤرخًا كبيرًا، لا يمتلك باعًا في النقد، لكن له أسلوب نفيس، أخباره ليست واضحة دومًا، وما يسرده**

(1) Ibid.; p. 189.

من تفاصيل ليس منتظمًا، حيث تجد عدة هفوات في النصوص تم بحثها كثيرًا"[1].

من أشهر كتبه "روضة الصّفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء." وكتاب "تاريخ السامانيين"، إضافة إلى "سيرة جنكيزخان".

كان الرحالة **ناصر خسرو** (1003-1088) شاعرًا ومؤرخًا، من أشهر كتبه: كتاب الرحلة، والمعروف باسم "**سفرنامه**"، وهو كتاب يصور فيه مغامراته أثناء رحلاته الكثيرة. قال عنه كارا ديفو: "**أن حياته كانت جد معقدة**"[2].

تابع كارا دي فو سرد مؤرخي الفرس والمغول، حيث اختار شخصية المؤرخ محمد بن أحمد النّسوي، الذي لم يكتب بالفارسية، وإنما كتب كتبه بالعربية، كان تابعًا وكاتبًا لسلطان خوارزم جلال الدين منكبرتي، الذي واجه حملة جنكيزخان في عدة معارك ومغازٍ. أرخ النّسوي لتلك الأحداث في كتاب وسمه بـــ"سيرة السلطان جلال الدين مَنكبُرْتي". لم يكن متمكنًا من علم التاريخ، فكانت كتاباته يشوبها النقص وعدم الدقة، وصفه البارون بقوله: "**لم يكن لديه مزايا كبار المؤرخين، كاتساع الأفق، والحركة، والوضوح، والرونق. ويظهر جليًا أنه يتيه ويتعب في تفاصيل موضوعه، فيركم بعضها فوق بعض مع شيء من الفوضى والنّمطية**"[3].

---

(1) Ibid . ; p.194.
(2) Ibid . ; p.213.
(3) Ibid . ; p.217.

آخر مؤرخ تعرض له البارون هو المؤرخ أبو المغازي بَهادر (1603–1663)، الذي كان أميرًا على خوارزم، حيث ألف بالتركية كتابًا وسمه بـــ"**شجرة نسب الترك**"، يستعرض فيه نسب الترك والمغول من آدم إلى وقته[1].

الفصل السادس : مؤرخو الترك

خصصه البارون للمؤرخين الأتراك، الذين كان لهم دورٌ كبير في التأريخ للعنصر التركي نسبًا وأحداثًا، كما دونوا تاريخ ملوكهم وسطروه، وكانت منهجيتهم في الكتابة تتجه صوب نظام الحوليات وبأسلوب أدبي، وصفه البارون بقوله: "**لدى العثمانيين سلسلة من ألمع كتاب الحوليات، وكانوا أكثر ميلاً في كتابتهم إلى الأدب قياسًا ومؤرخي العرب. ظهروا في وقت مناسب للغاية، نذكر منهم على سبيل المثال أحمد بن يحيى، الذي دون تاريخ الأتراك منذ أورخان Orkhan. وفي عهد بايزيد الثاني ألف مولانا إدريس البتليسي ونشري Nechari تواريخ قومية وفق الذّوق الفارسي. وأكبر حوليّ تركي هو مؤلف "تاج التواريخ**"[2].

ويذكر البارون أن الأتراك دونوا وجملوا تاريخهم في قوالب شعرية؛ مثلهم مثل الفرس، وقد مالوا ميلاً كبيرًا نحو الشّعر نظرًا لطبيعتهم، ويتجلى ذلك من خلال مجموعة من تراجم الشعراء،

(1) Ibid . ; p.223.
(2) Ibid . ; pp. 228,229.

ويبدو أن الشاعر المعروف باسم عبد الباقي، المتوفى سنة 1599، الذي عاصر السلطان سليمان، ثم السلطانين سليم الثاني ومراد، هو النموذج الأكثر تجسيدًا، فلقد كان كاتبًا رقيقًا ذا طبع عاطفي وجداني[1].

يتطرق المؤلف في الجزء الأخير من هذا الفصل إلى مؤرخي القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وهم مجموعة من الأتراك الرّحالة، الذين حاولوا من خلال الرحلات تدوين التاريخ، وقد أشار إلى كل من الرحالة أَليا أفندي ومحمد أفندي.

علق البارون على تلك المرحلة بقوله: "**يوجد للترك مدونات رائعة في الرحلات، من بينها نشير لمؤلف أَليا أفندي، فهذا المؤلف الذي بزغ في القرن السابع عشر، كان غزير العلم ودقيق الملاحظة، قد درس مطولاً العديد من البلدان الأوروبية والأسيوية**..."[2].

كما تحدث عن بعض المؤرخين المحدَثين؛ أمثال واصف أفندي، مؤرخ الحرب التركية الروسية سنة 1769. الذي كان ذا نزوع فلسفي، محبًا للسلم، وكان مقدرًا في الوقت نفسه لمزايا العرق والجيش في الدفاع والهجوم معًا.

يعتبر المؤرخ العسكري ألمير آلاي مؤرخًا عسكريًا، فهو يصور الوقائع دون فلسفة ولا بعد نظر، وجل ما كان يفعله ذكر الحوادث ذكرًا تاريخيًا، كباقي الحوليين ممن سبقوه.

(1) Ibid . ; p.245.
(2) Ibid . ; pp. 249 , 250.

اختص أحمد جواد بك بالتأريخ للإنكشارية، فهو يصف تكوينهم، وترتيبهم ورتبهم، ويذكر أهم المعارك التي خاضوها، ويذكر أيضًا الفظائع التي ارتكبوها من قتل وتدمير، ويمكن القول إنه بالرغم مما ارتكبوه من عدوان داخل تركيا، إلا أن المؤرخ كان أكثر رصانة: "**وكخلاصة، نقول : إن الترك يمتلكون قوة الذوق في كتابة التاريخ أسفرت عنه هذه الصفحات الرصينة، حيث يتضح الانسجام وأصالة الأسلوب مع ذبح أزيد من عشرين ألف رجل**"[1].

***

الفصل السابع : الفلسفة السّياسية

يعتبر الفصل السابع من أجود الفصول وأكثرها تطابقًا مع عنوان المؤلف الخماسي، فمفكرو الإسلام كمشروع كان من اللازم على البارون أن يهتم بمن نظَّروا وكتبوا في السياسة والاجتماع، لا أن يركز في المجلد الأول على الخلفاء والملوك والقادة، وحتى فئة المؤرخين لا يمثلون الجانب الفكري، بل يمثلون الاتجاه التّدويني السردي.

يرى كارا دي فو أن التنظير السياسي في تاريخ الفكر الإسلامي نال قسطًا كبيرًا، وتعد النظريات السياسية المقدمة متمايزة ومتنوعة، ومن جهة أخرى ثرية وغنية، وقد اكتسبت

(1) Ibid . ; p.271.

قوتها من تعدد مشارب مؤلفيها، فهناك الفلاسفة كالفارابي، وعلماء الاجتماع كابن خلدون، والساسة العاملون كنظام الملك، والفقهاء المتمرسون كالماوردي، والأحرار الملهمون كابن المقفع وقوجي بك المُلقب بمونتسكيو الترك، والصوفيون الشعراء كسعديّ وغيره[1].

اختار البارون من كل حقل أنموذجًا يُمثله، وكان أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (364هـ-450هـ/ 974م-1058م) أول من تحدث عنه من خلال كتابه المشهور "الأحكام السلطانية"[*].

قدم الماوردي كتابًا رائعًا وممتعًا عن الإمامة والوزارة، فهو يتحدث عن السياسة بين النظر العقلي والشرعي، معتبرًا أن رؤية الفلاسفة تتجه صوب نظام أخلاقي ذي طابع جد ذاتي، يتجه نحو النظام الطبيعي، بينما الشرع خلاف ذلك تمامًا، حيث وضع السلطة خارج إدراكات النفس البشرية، وأوجب إطاعة الشرائع لما فيها صلاح الرعية والراعي[2].

---

(1) Ibid . ; pp. 272, 273.

(*) طبعه ر. أنجر، بون (R Enger Bonn) سنة 1853، بعنوان "رسالة في الفقه الإسلامي العام". وترجمه ليون أوستروروغ (Léon Ostrorog) إلى الفرنسية في جزأين بالجزائر سنة 1915م، وحافظ على تسميته El-Ahkam Es-Soultaniya

(2) Ibid . ; p.274.

إن أهم ما يميز الفصل حديثه عن العلامة **عبدالرحمن بن خلدون** (1332-1406)، الذي يعتبره الغرب عمومًا أحد أهم علماء الاجتماع العرب والمسلمين، الذي قدم نظرية اجتماعية أنثربولوجية، وقد سبق بذلك الغرب نفسه، والغريب أن عمل ابن خلدون لم يهتم به العرب، بل اهتم به الغرب أكثر منهم، ولم يتعرف عليه العرب إلا من خلال الجامعات الغربية، ومن ذلك أن طه حسين جعله موضوع رسالته في الدكتوراه بفرنسا سنة 1924، كما نلحظ أن الجابري وغيره من مفكري العالم العربي كتبوا عنه وأنصفوه، يقول عنه كارا دي فو: "**تزوّدنا إفريقيا الإسلامية بشخص يتمثل في ابن خلدون عالم الاجتماع، إنه من الطراز الأول، لا تجد ذهنًا تمثل فلسفة التاريخ بكل وضوح، ونفسية الأمم، وأسباب التبدل والتحول، وطرق وكيفيات قيام الدول وتطورها، وتنوع الحضارات، وما يطورها وما يعوقها، تلك هي المسائل التي يطرحها بكل علمية ووعي في مقدمته المشهورة**(*). **ولا نجد مثل ذلك الطرح الذي طرحه ابن خلدون عندنا إلا في القرن الثامن عشر، حيث بدأ بعض المؤلفين يمعنون النظر في التاريخ وفق ذلك النسق (الخلدوني)**.

(*) من أشهر الترجمات للمقدمة ترجمة البارون الإيرلندي دوسلان (William Mac Guckin, baron de Slane) سنة 1863م إلى غاية 1885م.

يعتبـر ابن خلدون رجلاً ذكيًا من فصيلة مونتسكيو والأب دو مابلي (رغم الفارق الزمني الكبير بينهما)، كما يُعتبر جدًا لعلماء الاجتماع في وقتنا المعاصر، مثل تارد Tarde، أو المستشرق غوبينو Gobineau"[1].

يعود البارون إلى القرن الثالث هجري ليختار لنا شخصية كلامية ساهمت -حسب رأيه- في بلورة الوعي السياسي الإسلامي، ويتعلق الأمر بأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، المعروف بالجاحظ (159-255)، أحد أبرز المعتزلة، وألمع الأدباء العرب.

يعتقد البارون بأن الجاحظ له شهرة عربية وإسلامية واسعة جدًا، غير أنه في الغرب لا يكاد يُعرف، يصفه بقوله: "**من بين الفلاسفة قليل الحرص على الأنظمة، ولديه روح جد حرة، وهو أحد الوجوه التي امتدحها الشّرقيون كثيرًا، ولكنه غير معروف لدينا، إنه الجاحظ**"[2].

عندما ندرس النصوص التي اختارها البارون للجاحظ لا نجد للفكر السياسي أي وجود، لا من قريب ولا من بعيد، بل جل النصوص تتحدث عن الأدب والشعر، وفي فضائل العرب والترك، وفي الكلام والمنطق، ونحن لا نعرف السبب الذي جعل البارون يصنفه ضمن فئة رواد الفلسفة السياسية، وهذا الأمر نجده في كل أجزاء كتابه (مفكرو الإسلام).

(1) Ibid . ; p.278.
(2) Ibid . ; p.293.

كان الوزير النظّام في عهد سلاجقة فارس، الذين استولوا على خلافة بغداد منذ القرن الخامس الهجري، ومن أشهر ملوكهم طغرل بك، وألب أرسلان... وكان طغرل أشهرهم على الإطلاق، اشتهر بغزواته وفتوحاته، مما جعل الخليفة القائم بأمر الله سنة 447 هـ يأمر بأن يُذكر اسمه في خطب الجمعة، ثم زوجه بابنته.

استطاع النظّام أن يحوز منصب الوزارة في الدولة السلجوقية، نظرًا لحنكته السياسية وخبرته الإدارية، ونظرًا لكثرة الدسائس والمكائد، حاول كتابة كتاب في السياسة سماه (سياست نامه)، أي كتاب السياسة، وهو عبارة عن نصائح وتصورات تخص تسيير الدولة في جميع مفاصلها، كالميزانية، والضرائب، ....

كانت له أفكار تقدمية، من بينها: "**وفي خضم هذه النصائح الحكيمة، نجده يطرح فكرة عن الجيش لم تطرح من قبل، ولكنها تُفسر من خلال التركيبة الإثنية والعنصرية للإمبراطوريات الآسيوية القديمة، قال نظام الملك: "إن من خطر الكبير أن يمُلك جيش كبير رجال من أصل واحد فقط، فيجب على جميع عناصر الدولة أن تُقدم جنودا**"[1].

ينقلنا بعدها إلى الهند، من خلال تقديم شخصية أبي الفضل صاحب كتاب "آيين أكبري"؛ أي نظام أكبر، يربط اختياره لتطور علم الإدارة بالدولة المغولية بالهند أثناء القرن السادس عشر، فالكتاب يدور حول تنظيم البلاط الملكي

(1) Ibid., p . 317.

والخدمة العسكرية والمدنية، والإحصاء، والطرق، والعمران، وكافة ما يعرض للدولة من مناصب وفنون.... يقول عنه البارون : "**وكان الفيلسوف العالم الإداري أبو الفضل قد خدم في العسكرية. حيث اشترك كقائد في الحرب بدهقين، حيث حصد بعض الانتصارات، ونظرًا إلى أن البلاط لا يستغني عن خدماته، تم استدعاؤه للقصر، وقتل أثناء عودته سنة 1602 من قبل الأمير سليم، بأمر من جهانكير الذي كان يحقد عليه**"[(1)].

*****

الفصل الثامن : الأمثال والقصص ودورها في الفلسفة السياسية والأخلاق.

من بين الانتقادات التي نوجهها لكارا دي فو: إقحامه لعنترة بن شداد في الفصل الثامن، فعنترة لا ينتمي لمرحلة الإسلام، بل ينتمي لما يعرف بالجاهلية، ومن ناحية أخرى أن عنترة لم يكن له اهتمام بالسياسة والأخلاق نظرًا لطبيعة المجتمع العربي في تلك الفترة بالذات.

نحن نقدر للبارون تقديره للشعر العربي، ومدى علاقته بالواقع الاجتماعي، خاصة حين يتحدث عن شعراء النقائض في العصر الأموي[(2)].

(1) Ibid . ; pp. 323, 324.
(2) Ibid . ; p. 333.

يمر بعدها إلى الأمثال والحكم، ويختار شخصيتي الزمخشري والميداني، ويسوق لنا مجموعة من الأمثال الشرقية، وبعض الأمثال المقتبسة من التراث اليهودي. ويخص بالذات الكتب الآتية "أطواق الذهب"، و"نوابغ الكلم"، التي نقلت إلى الغرب عبر الفرنسي السيد باربيه دومينار[1].

يتطرق بعدها لقصة لقمان الحكيم، الذي ورد ذكره في القرآن كحكيم ذي بصيرة، حيث كان له في التراث الإسلامي دورٌ أسطوريٌّ في المأثورات التي رويت عنه: "**ويختلف المفسرون حول شخصية هذا الرجل، فبعضهم يقول إنه كان نجارًا، وبعضهم يقول إنه كان خياطًا، ويقول آخرون إنه كان إسكافيًا أو راعيًا. ويذهب البعض إلى القول بأنه كان عبدًا أسودَ، . . .**"[2].

ويعتبر كتاب كليلة ودمنة من أروع الحكايات وأشدها شهرة، تدور على ألسنة الحيوانات، فيه أمثال وقصص وعبر، كما تحوي على نقد للسلطة والسّياسة، كما تتمتع بالروعة والمتعة الأدبية.

***

(1) Ibid . ; p.338.
(2) Ibid . ; p.346.

الجزء الثاني

يتطرق **الجزء الثاني** إلى الجغرافيا والرياضيات والعلوم الطبيعية، حيث حاول أن يعرض أشهر من اشتغلوا بهذه العلوم، وتبيان مدى قوة نظرهم، وأهمية ما توصلوا إليه من نماذج تاريخية فرضت نفسها على تاريخ العلم.

خصص الفصول الثلاثة الأولى للحديث عن علم الجغرافيا والرحالة العرب، حيث اهتم العرب بالجغرافيا اهتمامًا بليغًا، حيث نبغ فيها كثير من العلماء الذي أبهروا الغرب؛ أمثال: أحمد اليعقوبي صاحب "**كتاب البلدان**"، وثابت بن قرة، والإدريسي، وأبي الفضل، وياقوت الحموي، والبيروني، وغيرهم من كبار الجغرافيين.

وقد اشتهر الإدريسي في الغرب شهرة واسعة، خاصة من خلال خرائطه، يقول البارون عنه: "**قد لا يعد الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الهاشمي القرشي) من أكبر الجغرافيين العرب، ولا الأكثر دقة، ولكنه عرف في وقت مبكر لدى الغرب، واسمه ما زال الأكثر حضوراً بسرعة في ذهن الجمهور، وهو يذكر مع أبي الفداء(*) حين نتحدث عن الجغرافيين العرب**"[1].

(*) إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ملك حماه.

(1) Les penseurs de l'islam ; T2 ; p.9.

اشتهر الجغرافيون العرب بعلم رسم الخرائط، وحساب خطوط الطول والعرض، كما اشتهروا بعلم الكوزموغرافيا، وهو علم وصف الكون.

ويذكر البَارون أيضًا بعض الرّحالة العرب، وصنفهم ضمن فئة الجغرافيين بناءً على وصفهم المدن والأماكن وصفًا دقيقًا، وكان من أشهرهم الرحالة ابن بطوطة المغربي.

في **الفصل الرابع** يتطرق إلى العلوم الدقيقة، وخاصة الجبر وعلم الحساب، بدأ الفصل بسؤال عن أصل الأرقام المسماة "الأرقام العربية"، حيث ذهب إلى ذكر أغلب الاحتمالات، ثم حاول آخر الأمر أن يجعلها ثنائية النَّشأة، أي أصلها هندي، ثم طورها العرب على الصيغة التي هي عليها الآن[1].

لم يكن كارا دي فو الوحيد الذي أراد أن يُرجع الرقم العربي إلى اليونان، فقد شاطره الرأي كل من (كاي) G.K.Kaye وكولان G.Colin.

ويعتقد كارا دي فو بأن كلمة هندي راجعة إلى كلمة End الفارسية، بمعنى قياس في الحساب والهندسة، أو أنها من هَندسي.

وهو يجزم بأن أصل الأرقام العربية يعود إلى الفيثاغوريين المتأثرين بالأفلاطونية المحدثة.

(1) Ibid., p.103.

ويبدو أيضًا أن كارا دي فو انساق وراء رأي البيروني[1] واليعقوبي في تاريخيهما، فالمؤلفان أيضًا يرجعان الرقم العربي إلى أصل هندي.

كتب كارا دي فو عن حلم الحساب (l'arithmétique) عند العرب، وحاول ذكر الأسباب التي أدت بهم إلى الاهتمام به، والعمل على تطويره، نظرًا لارتباطه بمسائل شرعية، كعلم الفرائض، وفعلاً جرى تطوير علم الحساب من خلال اكتشاف الخوارزميات التي كان لها دورٌ كبيرٌ في تطوير الرياضيات الغربية، كما يعترف بذلك كارا دي فو ذاته.

ركز في الفصل الرابع على عالمين اشتهرا بالرياضيات، هما الخوارزمي وعمر الخيام.

يعد الخوارزمي من أهم الرياضيين العرب والمسلمين، فلقد نال شهرة واسعة في الغرب نظرًا لاكتشافاته الرياضية المبهرة، وخاصة اللوغاريتمات التي لا غنى عنها اليوم في مجال العلوم الدقيقة، وهو نفسه الذي أطلق مصطلح الجبر، الذي احتفظ الغرب باسمه كما وضعه Algebra.

وقد أثبت كارا دي فو أن ليوناردو فيبوناتشي، أحد علماء

---

(1) البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، نسخة المكتبة الأهلية بباريس، أرشيف 6080، قال: "والذي نستعمله نحن مأخوذٌ من أحسنِ ما عندهم، ولا فائدة في الصور إذا عُرف ما وراءها من المعاني".

الجبر البارزين في القرن الثامن، اعترف بأنه يدين كثيراً للعرب، وقد سافر إلى مصر وسوريا وبلاد اليونان وصقلية، وتعلم الطريقة العربية هناك، ثم سرد الأوضاع الستة للمعادلات التربيعية كما وصفها الخوارزمي تمامًا.

ويعتبر الخوارزمي من واضعي **الأرقام العربية** من خلال نظام الزوايا، ومخترع الصفر، الذي أحدث بموجبه ثورة عميقة في كل أشكال الحساب والجبر، وتبدو عبقريته الرياضية بارزة من خلال حلّه المعادلات من الدّرجة الثانية بإيجاد الجذور، وهو الذي صنّف المعادلات ضمن ستة أشكال رئيسة، وأعاد أي مسألة جبرية إلى معادلة من الدّرجة الثانية بمجهول واحد على الأكثر.

يتابع البارون في الفصل الخامس الحديث عن أعلام العلوم الدقيقة، ويركز فيه على علم الهندسة (Géométrie) ممثلاً في ثلة من علماء الهندسة الكبار، كثابت بن قرة، ونصير الدين الطوسي، قال في بداية الفصل: "**بالنسبة للعلوم الهندسية، فإن الشرقيين كانت لهم الجدارة في تطوير علوم اليونان، وتعريفها لأوروبا في العصر الوسيط، ومن بين أهم تلك الأعمال : عناصر إقليدس، المجسطي لبطليموس، الذي حَفِظَ لأوروبا في عصر النهضة على جزء من عمل من الدرجة الأولى : الكتب من الخامس إلى السابع من مخروطات أبولونيوس. كما أسسوا علم المثلثات الحديث**"[1].

(1) les penseurs de l'islam ; TII ; p.137.

وقد اعتبر علماء الإسلام بمثابة أكبر مترجمي وشراح أعمال كل من إقليدس وأبولونيوس، ولولا هذه الخدمة الحضارية لهؤلاء العلماء المسلمين ما كان لأوروبا زمن نهضتها التعرف على ذلك التراث اليوناني الهندسي الرائع.

ويؤكد في الجزء نفسه على أن علمي المثلثات والظلال (المماس) هما علمان اخترعهما العرب، وقد برعوا فيهما براعة لم يسبقهم فيها لا اليونان ولا الفرس ولا الهند.

من خلال كتاب المجسطي الذي وضعه أبو الوفاء البوزجاني نكتشف أول دراسة منهجية مستقلة لأصول علم المثلثات، حيث أورد طريقةً استقرائية جديدة في حساب جداول الجيب والظل وظل التمام.

خصص البارون الفصل السادس للميكانيكا، حيث اعتبر بأن العربَ حافظوا بشكل جيد على الرسائل اليونانية في علم الميكانيكا، مما جعلهم ينقلونها نقلاً سليمًا، وأن أوروبا تعرفت على الإرث الميكانيكي اليوناني من خلال أعمال المسلمين بالخصوص، حيث يعترف البارون بهذا الفضل الكبير للعرب: "**في الميكانيكا نحن مدينون للعرب بالحفاظ على عملين مهمين للعلوم اليونانية: الأول هي ميكانيكا هيرون السكندري Héron d'Alexandrie، وأعمال فيلون البيزنطي Philon de Byzance**"[1].

(1) Les penseurs de l'islam, TII ; p .168.

وقد اشتهر في هذا العلم بالذات أحمد بن موسى[*]، وبديع الزمان الجزري[**]، فالأول اشتهر بحيل الميكانيكا والمعروفة "بحيل بني موسى"، الذي يضم حوالي مائة تركيب مختلف في الوسائل الميكانيكية. اشتهر أحمد بن موسى بدراسة مراكز الأثقال، كما كان خبيرًا في القرسطون (القسطار) Kharistiyon، وهو ميزان دقيق تُوزن به أدق الأشياء كالذهب والعقاقير.

ولعل أهم ما نلفت إليه هو اهتمامه بأرخميدس، وخاصة كتابه (قياس الأشكال المسطحة والمستديرة)، الذي مكنه من استخدام عقله على أوسع نطاق. لقد وضع أحمد بن موسى معادلة حضارية رائعة، نقدمها على الشكل الآتي: النجاح = استخدام الحيلة بدل القوة + العقل مكان العضلات + الآلة مكان البدن.

اشتهر بديع الزّمان الجزري بعلم الميكانيكا، وقد استطاع أن يخترع عدة آلات مهمة، كمضخة ذات أسطوانتين متقابلتين، وهي نواعير رفع الماء عن طريق الاستفادة من قوة التيار المتدفق في الأنهار.

(*) هو محمد (أبو جعفر) وأحمد والحسن بن محمد بن موسى بن شاكر (803 م- 873م)، عَاصر المأمون وهو من إقليم خرسان.

(**) بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري، من جزيرة ابن عمر بسوريا (1136م-1206م)

كما كان له الفضل في صناعة مضخة الزنجير والدّلاء: وهي آلة تعمل بفعل منسوب الماء المتحرك من خلال سقوط الماء على المغارف. كما طَور آلات ذاتية الحركة عاملة بقوة الماء، وساعات مائية، وآلات هيدروليكية ابتكرها علماء مسلمون قبله.

ومن خلال أعماله نجده وصف العديد من الآلات الميكانيكية المختلفة من ضاغطة، ورافعة، وناقلة، ومحركة. كما أنه وصف بالتفصيل تركيب السّاعات الدقيقة التي أخذت اسمها من الشكل الخاص الذي يظهر فوقها كساعة الفيل المنسوبة إليه.

لا يمكن ذكر كل ما في هذا الفصل من تفاصيل عن الميكانيكا، ولكن يجدر بنا القول بأن العربَ اهتموا بها اهتمامًا بالغًا، وقد استطاعوا من خلال تلك الموهبة اختراع عدة آلات، شكلت وقتها أسبقية علمية خارقة، كما يذكر البارون كارا دي فو قصة الساعة والملك شرلمان الفرنسي.

الفصل السابع خصصه لعلم الفلك (L'Astronomie)؛ حيث تحدث في بداية الأمر عن المدارس الأولى التي اشتغلت بالإرهاصات الأولى لهذا العلم، من خلال ما قام به الهنود والعرب في تجاربهم الأولى مع الفلك؛ التي تعود عمومًا في نهاية القرن الثاني على العموم.

يعتقد البارون أن علماءَ الفلك العرب كانت لهم مكانة خاصة في الغرب، وتلك المكانة نراها من خلال الدراسات التي أجريت عليهم، فلقد كانوا في كثير من الأحيان أكثر أهمية من

أصناف العلماء الآخرين: "**أيًا كانت شهرة الشرقيين كفلاسفة وأطباء؛ وكيميائيين؛ قد يقال إنه في أي فرع من العلوم لم يكونوا أكثر انخراطًا في الحياة الفكرية للغربيين من علم الفلك. حيث تُرجمت أعمالهم من هذا القبيل في العصور الوسطى. ويشغلون مكانًا مهمًا جدًا منذ أولى نشريات الطباعة الأولى. وأن وسائلهم قد تم جلبها إلينا، وأعمالهم وملاحظاتهم قد استعملها علماؤنا، دُرست، ووُطنت، ونوقشت، من قبلهم حتى عصرنا هذا**"[1].

تبدو المرحلة الثانية حسب تقسيم كارا دي فو هي الأهم، فقد ظهر فيها علماء ومخترعون وملهمون، استطاعوا أن يُطوروا علم الفلك تطويرًا خاصًا، وقد تمثل ذلك النبوغ في شخصيتين: الأولى هي شخصية أبي الوفاء، والثاني البيروني.

تحدث أيضًا بإسهاب عن نظرية كروية الأرض، وكيف أسهم المسلمون في بلورتها جيدًا، مما قدم خدمة علمية للغرب فيما بعد. ثم تحدث عن قوائم الفلك المشهورة في التراث الإسلامي الكبير، وخاصة ما نلحظه أن تلك القوائم الفلكية استعملت في عدة نواحٍ اجتماعية وسياسية، فقد فرضت نفسها في السحر والتنجيم.

ويختم البارون هذا الفصل بشهادة مفادها: "**إن هؤلاء العلماء كانت لهم عقول طليقة مولعة بالبحث عن الحقيقة، فلم**

(1) Les penseurs de l'islam ; TII ; p. 195.

يحجموا عن نقد بطليموس، وصرحوا مع ابن رشد بمناقضتهم لتداخل الأفلاك وتركزها، وإيثارها لما هو أبسط وأقرب إلى الطبيعة"[1].

يعد اختراع الإسطرلاب[2] من أهم ما يلفت دارس علم الفلك على الخصوص، فهو اكتشاف غيرَّ رؤيتنا للأفلاك والأرض من خلال القدرة على حساب الأفلاك ومتابعة سيرها وحركتها، وقد قدّم كارا دي في شبابه سنة 1895 دراسة حول الإسطرلاب نشرها في (المجلة الآسيوية) قال فيها: "**ففي القسم غير المطبوع من كتاب جامع المبادئ والغايات لأبي علي حسن المراكشي، من علماء القرن السابع، ورد عنده وصف الإسطرلاب المعروف بالزورقي في هذا النص : "قال أبو الريحان البيروني : إن مستنبط هذا الإسطرلاب هو أبو سعيد السجزي، وهو مبني على أن الأرض متحركة**"[3].

جاء الفصل الثامن مجرد تكملة للفصل السابع، حيث حاول البارون التطرق إلى المدارس الفلكية في الغرب الإسلامي،

---

(1) نقلًا: عباس محمود العقاد، **فرانسيس بيكون**، مؤسسة هنداوي، 2012، ص: 41.

(2) Aldo Mieli, **La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale**, E J Brill; 1st ed. edition (1938); p.29.

(3) Carra de Vaux, **L'astrolabe linéaire ou bouton d'El-Tousi**, Revue Journal Asiatique, Ser IX; t , V, 1895; p . 166.

وبالخصوص في الأندلس والمغرب الكبير، وقد اختار اثنين من العلماء؛ هما:

- أبو أسحـــاق إبـراهيم بن يحيى التّجيبيّ النقّاش الزرقالي (1029-1087) المعروف في الغرب باسم Arzachel، وهو من مدينة طليطلة، تعود شهرته لكونه استطاع أن يقيس طول البحر الأبيض المتوسط قياسًا دقيقًا، حيث أعطى 42 درجة بدل 62، وهو رقم قريب جدًا من قيم القياسات الحديثة، كما كان أول من أثبت أن رحلة مَيْل أوج الشمس هي (12,04) ثانية بالنسبة للنجوم الثوابت، وهو قريب من الرقم المعاصر (08، 11)، وهو أول من قال بدوران الكواكب في مدارات بيضاوية.

كما اخترع آلات فلكية جديدة، ذكرها في كتابه الموسوم بـــ "الصحيفة الزرقالية".

- أبو إسحق نور الدين البطروجي الإشبيلي (توفي 1204)، المعروف جيدًا في الغرب تحت اسمه اللاتيني "Alpetragius". وهو من تلامذة ابن طفيل الأندلسي.

تعود شهرته لكونه أول عالم قدم نظرة غير بَطلمية (بطليموس) للأفلاك، حيث زعزع نظرية بطليموس، وأعاد الاعتبار للفلكي إيودوكسوس Eudoxus (390 ق.م-337 ق.م)

من أشهر كتبه "كتاب الهيئة"، وهو كتاب ثري ومهم في علم الفلك، وقد خالف فيه كثيرًا من الأفكار حول حركة

الكواكب السيارة، حيث قال بأنها إهليجية، وليس كما وصفها بطليموس في كتابه المجسطي.

قال البارون عن هذين العالمين: "**في الغرب الإسلامي، علم الفلك قدم عبر عالمين أصيلين: الزرقالي والبطروجي، أحدهما صنع آلة للملاحظة، والثاني قدم تصورًا جديدًا عن نظام الكون. وكلاهما لعب دورًا كبيرًا في سمعة العالم اللاتيني**"[1].

تحدث في الفصل التاسع عن العلوم الطبيعية، وخصصه للعلوم الطبية، وقد حاول أن يبحث عن الصلة بين العلوم الطبية الإسلامية واليونانية والمسيحية، واليهودية، وعند الفرق الصابئة.

وقد توصل أن العلومَ الطبية عند العرب لم تكن مشهورة إلا بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، حيث ساعدت حركة الترجمة والتثاقف مع أمم الجوار في بروز مجموعة من أشهر الأطباء المسلمين، أمثال: الرازي، وابن سينا، وابن البيطار، وابن نفيس، ....

ويرى البارون أن العلوم الطبية في الإسلام تُعد مفخرة ومكسبًا عظيمًا: "**إن الطب يُعتبر من أهم الفروع الـمُمَجدة للحضارة العربية. اهتم المسلمون كثيرًا بهذا العلم. وقد كرموا الأطباء كثيرًا.**

ترك لنا المؤرخون العرب معلومات كثيرة عنهم، خاصة ابن أبي أصيبعة الذي كتب كتابًا وسمه بـــ: "عيون الأنباء في طبقات

(1) Les penseurs de l4islam, TII ; p.227.

الأطباء"، وابن القفطي، كاتب كتاب "أخبار العلماء". . . ."[1].

وقد لقيت الأعمال الطبية الكبرى اهتمامًا من الغرب، خاصة كتب ابن سينا، التي كانت تدرس في كبرى الجامعات الغربية زمن النهضة.

اشتهر أطباء المسلمين بقضايا الصّحة والجراحة، وعلم التشريح، وكذلك الصيّدلة وعلم العقاقير.

يعتبر ابن سينا من أشهر المفكرين والأطباء في رأي البارون، ونظرًا لشهرته الواسعة كتب عنه كتابًا وسمه بـــ: "**ابن سينا**" ضمن سلسلة كبار الفلاسفة. حاول من خلاله أن يعرض جميع أفكار ابن سينا في الطب أو الفلسفة، وقد وصفه بقوله: "**لقد قرر أخيرًا تعلم الطب، وبما أن هذا العلم ليس من السهل تعلمه، فقد استطاع أن ينجز كثيرًا من التطور، بعد أن عرف كثيرًا من الكتب، وانهمك بزيارة المرضى، وتقديم وصفات تجريبية وأكثر خبرة مما كانت سائدة. وبدأ الأطباء يتوافدون للدراسة على يديه، ولم يكن قد بلغ 16 سنة بعد**"[2].

خصص الفصل العاشر للتاريخ الطبيعي، وخاصة الفلاحة وما يتبعها عليه من زراعة وتربية للمواشي، وذكر أهم المحاصيل الزراعية كالقطن، والشّعير، وكيف تعامل المسلمون مع القحط والجفاف، وكيف نظموا الري والسّقاية.

---

(1) Les penseurs de l'islam ; TII ; p .253,254.

(2) Carra de Vaux, **Avicenne** ; Félix Alcan, Paris ;1900, p. 133.

أما الفصلان الأخيران، فقد وضعهما لعلم الجيولوجيا والكمياء التي عرفت شهرة واسعة في التراث الإسلامي، التي كانت في بداية الأمر تعد من العلوم المحرمة لارتباطها بالحيل. وقد ارتبطت الكمياء عند العرب بفلسفة تحويل الأشياء عن أصل طبيعتها.

***

الجزء الثالث: التفسير والفقه

يتحدث في الفصل الأول عن الفرس قبل الإسلام، وهي محاولة من البارون لإعطاء صورة عن الحضارات التي كانت مزدهرة قبل بزوغ شمس العرب، فالفرس كانوا يمثلون حضارة راقية جدًا مقارنة بالعرب قبل الإسلام، حيث أعطى البارون صورًا تاريخية عن الإبداع الفارسي ممثلاً في ملوك الفرس كأنوشيروان، الذي قال عنه: "**في العالم العربي، أنوشيروان مد تأثيره بما فيه الكفاية. لقد كان لديه أتباع من العرب جنوب فارس، الذين كانوا يقطنون الحيرة، وهبهم ملكًا**"[1].

وتحدث في الفصل الثاني عن العرب قبل الإسلام، مركزًا على الأجناس والأعراق التي سكنت شبه الجزيرة العربية، كما ذكر أهم الديانات التي عرفتها المنطقة، وخصوصًا الديانة الإبراهيمية، التي يسميها أهل السير بالحنيفية. كما تحدث عن هجمة أبرهة الأشرم على مكة، التي تُعرف بعام الفيل.

(1) Les penseurs de l'islam, TIII, p.4.

تحدث في ختام الفصل عن أسطورة الراهب بحيرا، والتي اعتبرها مجرد أسطورة، تم تضخيمها من قبل المسلمين، وأيضًا العرب المسيحين: الفئة الأولى كانت تهدف لإعطاء الشّرعية على نبوة محمد، والفئة الثانية أرادت أن تنسب القرآن والإسلام إلى الراهب بحيرا، واعتبار محمد مجرد تلميذ نجيب(*).

تحدث في الفصل الثالث عن حياة محمد (ﷺ) من خلال مرحلتين: الأولى محمد في مكة، والثانية محمد في المدينة. وهو من خلال هذا التقسيم يحاول أن يُميز بين مرحلتين في سيرة محمد، مرحلة الدّعوة، ومرحلة بناء الدّولة.

دافع البارون عن شخصية محمد دفاعًا منصفًا في كثير من الأحيان، فلقد رد على كثير من المسيحين بأنهم يزيفون عمدًا شخصية محمد: "**إن محمدًا ظل وقتًا طويلاً في الغرب معروفًا معرفة سيئة، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه**"(1).

جعل الفصل الرابع فصلاً نقديًا لحياة محمد، وخاصة البحث عن أصول الدّعوة الإسلامية، ثم قدم قراءات نقدية لمرحلة الطفولة والشباب وغيرهما من الأمور التي يراها مناسبة للنقد.

وأورد فرعًا مهمًا للغاية، تحدث فيه عن محمد ونهاية العالم من خلال أطروحة **بول كازنوفا** (1861-1926) الذي

(*) أنظر قسم النصوص المختارة.

(1) Carra de vaux, **Mahométanisme**, Edition paris, 1898, p.20.

عرض البارون بعض أهم أفكاره، خاصة حول ختم النبوة، وعودة المسيح، ومقولة نهاية العالم التي ربطها محمد بموته باعتباره آخر نبي، وفي سياق آخر أن نهاية العالم حسب كازنوفا تكون قبل موت النبي: "**إن عقيدة محمد (نهاية العالم) التي أحاول أن أثبتها، وأن الأزمان التي كان أعلن عنها كل من النبي دانيال واليسوع قد انتهت، كان محمد آخر نبي اختاره الله لرئاسة العالم، مصحوبًا بالمسيح الذي يعود إلى الأرض لهذا الغرض، أي نهاية العالم، وهي القيامة العالمية أو الحكم الأخير. عندما توفي، كان لا بد من إخفاء أو نفي الاتحاد الحميم الذي ربطه النبي بين مجيئه ونهاية العالم. وتحت تهديد بالإبادة تماشيًا والإيمان الجديد، ونظرًا لهذا الاحتيال المتدين، نحن ندين قرآن أبي بكر وعثمان، هذا هو ما يجب على المؤرخ تسليط الضوء عليه قبل الشروع في إعادة تشكيل العقيدة الأولى للإسلام**"[1].

ويبدو أن البارون تماهى معه في كثير من القضايا التي طرحها؛ كقضية التلاعب بالقرآن من قبل أبي بكر وعثمان من خلال ادعائهما بأنهما قاما بإعادة صياغة القرآن، حيث قال البارون: "**إن تلك الأسطر التي أشرت إليها تعد خطيرة للغاية. إنها تطرح بجرأة مسألة أصالة القرآن، الذي حتى هذه اللحظة لم**

(1) Paul CASANOVA, **Mohammed et la fin du monde**: étude critique sur l'Islam primitif, I-II, Paris, P. Geuthner, 1911, Vol I ; p.8 .

يكن مطروحًا للشك. وأنا من وجهة نظري، أعتقد أن هذه المسألة تمتلك شرعية طرحها"[1].

ومواصلة للنقد خصص الفصل الخامس لنقد القرآن، حيث عمل على طرح وإثارة كثير من القضايا، كانت أبرزها فكرة أن كتاب محمد ما هو إلا ترجمة للتوراة والإنجيل، ويطرح تلك الفرضية من خلال وجود **ورقة بن نوفل** وبعض اليهود والمسيحيين داخل الفضاء القرشي.

طرح مسائل التوحيد، ومحاولة فهمها على أسس تاريخية، خاصة وجود الأحناف في شبه الجزيرة العربية. ثم ناقش تاريخ نزول السُّور القرآنية وتطورها، مع محاولة طرح الفكرة الرئيسة للقرآن. والغريب في الأمر أنه في كثير من الفقرات لا يسميه بالقرآن، وإنما يسميه كتاب محمد.

ثم يحاول أن يثير جملة من المسائل الشائكة حول تدوين القرآن، والبحث عن مصير أقدم النسخ القرآنية، وختم الفصل بالحديث عن مفسري القرآن الكريم.

ونلحظ أنه كالسابق يركز على القضايا الشائكة والخلافية، ويبدو أن البارون لم يكن ملتزمًا بمنهجه الذي -كما قال- يتوخى من خلاله الموضوعية.

يتجه في الفصل السادس نحو الحديث عن المعارك العربية

(1) les penseurs de l'islam, TIII; p.148.

في عهد أبي بكر وعمر كما سماها، محاولاً كذلك التركيز على بعض الأحداث التي أثارت خلافًا بين المسلمين أنفسهم.

وربط الفصل السابع بخلفاء بن أمية، محاولاً تقديم نشوء الدولة ضمن صراع تاريخي مرير، بدأ ذروته بعد مقتل عثمان بن عفان. وحاول أن يبين الظروف الموضوعية التي ساعدت معاوية آخر الأمر على التغلب وبناء الدولة الأموية، والتي اكتملت في عهد عبد الملك بن مروان.

خصص الفصل الثامن للحديث عن بداية كُتاب السيرة النبوية، وتدوين السنة النبوية، واعتبر أن هذا الفصل يعد من أهم الفصول: "**هذا الفصل له أيضًا أهمية قصوى بالنسبة للتاريخ الثقافي الإسلامي، كذلك لأنه يجعلنا نفهم الطريقة التي استطاع الإسلام أن يؤسس إيمانه، وحقه وأخلاقه، فقط لأنه يسمح بتقدير جهد تفكيره النقدي**"[1].

خصص الفصلين التاسع والعاشر للفقه والمذاهب الكبرى في الإسلام، ولم يأت بجديد، حيث تم التركيز على المعطى التاريخي، مع محاولة إبراز الاختلاف بين المدارس الفقهية.

تحدث في **الفصل الحادي عشر** عن شُراح ومُفسري القرآن الكريم، وركز على شخصيتي الطبري والزمخشري. وهذا الموضوع كان قد تعرض له في الجزء الأول من الكتاب، فأغلب ما جاء في الفصل هو تكملة لما سبق ذكره، وبشيء من التفصيل.

(1) Les penseurs de l'islam ; TIII ; p.259.

ونشير أنه في آخر الفصل تحدث عن موضوع مهم للغاية، تمثل في الحقوق المدنية في الإسلام، حيث عرض مجموعة من الحقوق المدنية. ولكنه حصرها في الزواج، والمهور، والطلاق، وتعدد الزوجات، والزواج بالإماء، ويبدو أنه في بعض الأحيان لم يستطع فهم روح الشريعة الإسلامية.

***

الجزء الرابع: المدرسية، واللاهوت، والتصوف، والموسيقى

يعترف البارون أن الجزء الرابع يتضمن جزءاً كبيراً مما طرحه في كتابيه: "**إن موضوع هذا الجزء يستحضر جزءاً كبيراً مما تم عرضه في كتابي، ابن سينا (1900)، الغزالي (1902)، وبما أن هذين الكتابين معروفان وموجودان بين الأيدي، فقد عملنا على أن لا نكرر كثيراً ما تم قوله**"[1].

يحوي **الجزء الرابع** ثمانية فصول، كلها تدور حول التراث الفلسفي والصوفي في الإسلام، ويبدو أن كارا دي فو حاول من خلال هذا الفصل أن يخرج عن متون النص الإسلامي الرسمي، ليعرض النص البشري وتمثلاته ضمن فضاء سيطر عليه النص الرسمي.

خصص **الفصل الأول** للمدارس الشرقية، وخاصة مدارس الترجمة السورية، التي اختصت في ترجمة الأعمال اليونانية،

(1) Les penseurs de l'islam, T IV ; p.A.

وقد نبه إلى ملحوظة مهمة، وهي أن العربَ لا يُحبذون لفظة المدرسيون، بل يحبذون لفظة الحكماء.

اختار مجموعة من ألمع المترجمين على رأسهم:

- **الكندي**: (185هـ-256هـ/805م-873م) أصله عربي من قبيلة كندة العربية، مال إلى الفلسفة والموسيقى، ومارس الترجمة. وصفه البارون بقوله: "**لدينا وثائق جد قليلة عن الكندي، بالرغم من شهرته الكبرى، التي جعلته يُلقب بـ "فيلسوف العرب"، أغلب أعماله ضاعت، كما أن جميع المصادر لا تتفق حول تواريخ وأماكن مؤلفاته**"[1].

- **الفارابي**: يمثل أبو نصر الفارابي أحد أهم شراح أرسطو وأفلاطون، لُقب بالمعلم الثاني، قال عنه البارون: "**الفارابي، قبل ابن رشد، يعد الشارح الرئيس لأرسطو والفلسفة اليونانية، لقد شرح كتاب المقولات، الهيرمينوطيقا، أنالوطيقا: الأولى والثانية (القياس)، الجدل، السفسطة، الخطابة، الشعر..**"[2].

- **ابن سينا**: تم الحديث عنه سابقًا، قال عنه البارون: "**ابن سينا هو المنظم الرئيس للمدرسية، وأحد أكبر علماء العصور الوسطى**"[3].

خصص **الفصل الثاني** للمدرسيين بالمغرب والأندلس، وقد اختار:

(1) Ibid., p.4.
(2) Ibid., p.8.
(3) Ibid., p.18.

- **ابن طفيل**: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي (1100-1185)، كان له شأن عظيم في بلاط دولة المُوحدين، وربطته علاقة متينة مع أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، وقد كتب قصة "حي بن يقظان" ذات المدلول الفلسفي : "**الرواية الفلسفية لابن طفيل كانت قد تُرجمت إلى اللاتينية، وقد وُسمت بـــ "حي بن يقظان"، واعتبرت من أهم الكتب المفضلة في العصر الوسيط**"[1].

- **ابن رشد**: أبو الوليد شهرته في الغرب لا تضاهيها شهرة أحد، فلقد عرفه الغرب أكثر مما عرفه المسلمون أنفسهم، وخاصة أن الغرب سموا النزعة التنويرية الأولى بالرشدية.

تناوله البارون من جهات مختلفة ومتنوعة، ذلك أن ابن رشد ألف في أغلب الموضوعات التي شغلت الفلاسفة، حيث امتاز بـــ:"**تعليقات ابن رشد، التي تُغطي كل أعمال أرسطو تقريبًا، لقد شُكلت ضمن ثلاث كتابات : الطويلة، والقصيرة، والمتوسطة. نسميها بالشروحات الكبرى، والوسطى، والصغرى. هذه الطريقة في الدراسة ثلاث مرات لكل رسالة، وبطريقة متطورة بشكل متزايد، كانت مستخدمة في الجامعات الإسلامية، وكانت منهج تدريس جيد جدًا..**"[2].

تحدث البارون في **الفصل الثالث** عن مجتمعات الفلاسفة،

(1) Ibid., p.56.
(2) Ibid., pp.65,66.

حيث تطرق إلى ظاهرة الحركات الغامضة والسرية في العالم الإسلامي فقال: "**نحن نعرف المجتمعات السرية في العالم الإسلامي؛ وأنها ذات حجم كبير، وكلها ذات طابع فلسفي: الصابئة، مجتمع ديني وعلمي قديم؛ التي استمرت عدة قرون في الإسلام؛ إخوان الصفا، مجتمع الفلاسفة المثير للاهتمام، الذين تركوا موسوعة (رسائل إخوان الصفا، 6 مجلدات)**"[1].

انعطف في **الفصل الرابع** إلى مسائل اللاّهوت والعَقيدة، خاصة ما أفرزته المدارس الكلامية من جدل لاهوتي حول الله وصفاته وأسمائه: "**التّعقل الفلسفي طُبق في وقت مبكر في مسائل اللاهوت في الإسلام، وسمي بعلم الكلام، وهو خطاب حِجاجي استطرادي. اخترق علم الكلام هذا الدين عن طريق بعض الطرق التقليدية والشفوية، وأيضًا عبر ترجمة كتب يونانية قديمة، التي تلقت منها فقط دفعة جديدة، والتي لم تكن مدرسية بشكل صحيح**"[2].

كما تعرض لحادثة خلق القرآن ومجابهة الإمام أحمد بن حنبل للمعتزلة.

ثم انبرى للحديث عن الأشعرية، ممثلة في مؤسسها أبي الحسن الأشعري، والغزالي، والنسفي، ثم تحدث بإسهاب عن عودة اللاهوت الكلامي.

(1) Ibid., p.94.
(2) Ibid., pp.133,134.

خصص **الفصل الخامس** للتصوف، عرض أول الأمر نظريات التصوف عبر الأحوال والمحطات، واختار السهروردي والحلاج، ورابعة العدوية، وقد حاول أن يُلخص عقيدة التصوف في قوله: "**من خلال المؤلفات التي تحدثنا عنها، وأخرى لم نعرضها بعد، إنه من السهل معرفة عقيدة التصوف، ويمكن أيضًا محاولة البحث كيف تَشكل، وكيف تم إعادة بناء التاريخ. إن هذا القسم من العقيدة، الذي يهتم بشأن المحطات والحالات الصوفية خصوصًا، يعتبر مهمًا. هذا القسم لم يتأسس على الإشراق ولا على العقلانية، ولكن تقريبًا على الخبرة النفسية للزهاد. من اللافت للنظر أنهم يعتقدون أن هذه التجربة يجب أن تكون موحدة من حيث إنها ضرورية؛ الشيء نفسه بالنسبة للجميع، وأنهم وصلوا بالفعل في هذا النوع إلى الوحدة النفسية**"[1].

عرض أفكار كلٍّ من ابن عربي وابن الفارض بطريقة استعراضية، واعتمد بالخصوص على أعمال ماسنيون وأرنست رينان.

انتقل البارون في **الفصل السادس** لفئة الشكاك والمشككين، وكان على رأسهم أبو العلاء المعري من خلال شعره وملحمته المشهورة "**رسالة الغفران**". انتقل بعدها للشاعر الفارسي الكبير عمر الخيام من خلال رباعياته، كما تعرض أيضًا لشمس الدين محمد حافظ من خلال قصائده المثيرة الموسومة بـــ "الغزل"...

(1) Ibid., p.201.

لخص البارون هذه النزعة التشكيكية في قوله: "**يبدو الأدب التشكيكي في العالم الإسلامي أكثر فضولية من وفرته. لقد كان من الخطر القول إنه كان من الشكاك، كان عبثًا ما يكفي لكتابة ذلك. إن التعصب، والقانون، والاحتقار عقَّدت حياة الإنسان؛ وأدت إلى قمع فوري ومحاكمات بالردة؛ حتى الكتابات من هذا النوع ضاعت**"[1].

خصص **الفصل السابع** للشعراء الفرس؛ أمثال السعدي، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي. وقد سبق وأن تحدث عن الشعر والشعراء في الجزء الأول. وعليه، لم يأت بأفكار جديدة تستحق الطرح من جديد.

خصص **الفصل الثامن** والأخير للموسيقى، وهو مختص في الموسيقى الشرقية. حيث تحدث أول الأمر عن أصول الموسيقى العربية، ثم اختار كتاب الأغاني للأصفهاني كأنموذج لتاريخ الموسيقى، ثم انتقل إلى مسألة جد هامة في تاريخ الثقافة الإسلامية، وهي علاقة المغنين العرب بالخلفاء، انعطف نحو الفارابي وصفي الدين الأرموي ليقدم أهم نظرية في الموسيقى الإسلامية. كما تحدث عن ارتباط الموسيقى بالدين من خلال ظاهرة التصوف.

***

(1) Ibid., p.249.

الجزء الخامس: الفرق والرأسمالية الحديثة

خصص الجزء الخامس والأخير للفرق والمذاهب الفكرية، مبرزًا الصراع السياسي بين الشيعة والسنة على مر تاريخ الأمة الإسلامية. ويبدو أنه يحاول من خلال دراسة النحل والفرق معرفة مستقبل الإسلام من خلال طريقة تفكير الفرق، ضمن الفضاء العام والعالمي المعاصر. وقسمه إلى قسمين:

القسم الأول : الطائفة الشّيعة

تطرق في الفصل الأول إلى الإمام علي والطائفة الشيعية، مُبتدًا حديثه عن شخصية الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ، حيث ذكر مكانته في قومه وفي الإسلام، وقد خصه بالفروسية والشجاعة، والعلم والفقه، وقال عنه: "**شهدت شخصية علي [بن أبي طالب] درجات مختلفة من المثالية، وانتهى به الأمر، في عيون بعض الطوائف، أنه يُمثل ألوهية حقيقية. كما تم تطبيق بعض سماته على المثل الأعلى المسيحي، وتنسب إليه أعلى مشاعر التصوف. ولقد تم تمثيله عند البعض بالإله الـمُعذب**"[1].

ويخلص البارون أن شخصية علي بن أبي طالب أخذت أشكالاً أسطورية كثيرة ومتنوعة، فارقت في كثير من الأحيان الواقع والتاريخ، حيث استغل كثير من القادة والسّاسة هذه الشخصية لأجل الوصول إلى مكاسب سياسية في كثير من حقب تاريخ الإسلام.

(1) Les penseurs de l'islam ; TV, p.9.

بعدها، تطرق إلى جدلية الإمامة والمهدوية، خاصة ارتباط الفكر الشيعي عمومًا بمسألة المهدي المنتظر، وهذا الربط نتج عنه القول بالإمامة ورفض الخلافة؛ لأن الخلافة هي مجرد منصب سياسي لا يُعطي لصاحبه مكانة روحية، بيد أن الإمامة هي منصب ديني مرتبط بالوصاية لا الاختيار، وقد أسس هذا الاعتقاد لحظة مأساوية في التاريخ الإسلامي[1].

يقود الحديث عن الشّيعة إلى دراسة الظاهرة ضمن الأمة الفارسية بالخصوص، لذا حاول أن يعرف علاقة التشيع بالتراث الفارسي، حيث أشار إلى عدة مناهل جعلت الفرس تنجذب نحو المذهب الشّيعي.

آخر الفصل خصصه للأماكن المقدسة عند الشيعة، وخاصة كربلاء[2] التي ارتبط ذكرها بالحسين بن علي، التي تحولت عند الشيعة إلى مكان مقدس ومبجل، يحج إليه الشيعة من كل مكان.

وقد ذكر أماكن أخرى مقدسة كالنجف، والمقامات الشامية؛ كمقام رقية وزينب، وأيضًا الأماكن المقدسة بالعراق، خاصة مرقد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري بسامراء[3].

تطرق في **الفصل الثاني** إلى فرقة الإسماعيلية، وهي ثاني أكبر الفرق الشيعية في التاريخ بعد الاثني عشرية، التي اعتبرها

(1) Ibid., p. 12.
(2) Ibid., p .26.
(3) Ibid., p.28.

البارون مجرد فرقة أعادت ترهين الفلسفة القديمة، خاصة الأفلاطونية والغنوصية، ضمن قالب ديني ومذهبي.

ويرى أن البعد الحقيقي لها يكمن في ثورتها على النظام العباسي، ومحاولة استبداله بالنظام الإمامي، وذلك عن طريق التبشير بظهور الإمام المهدي كمخلص من الظلم والطغيان[1].

ضمن الرؤية الإسماعيلية، ظهرت عدة فرق، كالقرامطة (Karmates) التـي أسسها حمدان قرمط بالبحرين، والحشاشين (Assassins) التي يعود أصلها إلى الحسن بن الصباح بسوريا ولبنان، والبكتاشية (Bektachis) التي أسسها بالم سلطان بتركيا وألبانيا، والحروفية (Houroufis) التي أنشأها فضل الله أستارابادي ببلاد فارس[2].

تطرق في **الفصل الثالث** إلى الطائفة الدرزية[*] التي يعتبرها مجرد امتداد للإسماعيلية، وهي ترتبط بعبيد الله الشيعي، ثالث أكبر منظر، ثم بالحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي يقدسه الدروز تقديسًا خاصًا.

مذهب الدروز خليط من الفلسفات القديمة، حاول البارون

---

(1) Ibid., p.36.

(2) Les penseurs de l'islam, TV, p.47.

(*) أصل التسمية يعود إلى محمد بن إسماعيل الدرزي، الذي يُقال إنه تم تكفيره من قبلهم، وهم يميلون إلى تسمية أنفسهم بأهل التوحيد، أو ببني معروف.

أن يقدم عقيدتهم على أنها نزعة غنوصية تستمد فلسفتها من حمزة بن علي بن أحمد، ولكنها غنوصية فهمت بشكل سيئ، حيث أدخل حمزة عليها بعض الأمور الغريبة كألوهية الحاكم بأمر الله وغيرها من الأمور[1].

خصص الفصل الرابع للبابية، التي أسسها علي محمد بن محمد رضا الشيرازي الملقب بـــ"**الباب**"؛ أي الوسيط (هرمس) بين الله والعباد، وهي فرقة ذات أصول شيعية، رغم أن الشيعة الاثني عشرية تُكفرها، وتعتبر مؤسسها مجرد زنديق ودجال.

قال عنها البارون: "**البابية هي ديانة اشتقت أيضًا من الأفكار القديمة التي عرضناها سابقًا (يقصد الشيعة)، ويظهر تطورها في اتجاه أفكارنا الحديثة. ولقد اهتم بها كثير من العقول بالغرب، ووجدت تعاطفًا، وأيضًا منتسبين بأمريكا وأوروبا**"[2].

بعد موت الباب سنة 1892، ادعى عباس أفندي أنه هو الذي جاء الباب ليبشر به كمخلص ومهدي، وكان قد اتخذ لنفسه لقب "بهاء الله"، وبذلك تكون البابية أنتجت آخر الأمر البهائية.

القسم الثاني : اختراق الأفكار الأوروبية للإسلام (الرأسمالية المعاصرة)

خصص القسم الثاني للتلاقح الفكري الذي حدث بين الغرب والعالم الإسلامي، حيث يتحدث عما سماه اختراق

(1) Les penseurs de l'islam ;TV, p.66.
(2) Les penseurs de l'islam ; TV, p.77.

بعض الأفكار الأوربية للثقافة الإسلامية، خاصة أفكار التحديث والديمقراطية، وفكرة الرأسمالية ببعدها الغربي. وتناول مجموعة من الأمثلة التاريخية ممثلة في دول إسلامية اشتهرت بتأثرها بالتجربة الغربية. وقد ذكر تلك التجارب وفق الترتيب الآتي:

1- التجربة التركية

خصص للتجربة التركية ثلاثة فصول كاملة (الأول، والثاني، والثالث)، ويعتقد أنها أبرز تجربة معاصرة في العالم الإسلامي كله، حيث استطاع الأتراك الاستفادة من التجربة الأوروبية في التحديث ومواكبة العصر، وقد ذهبوا بعيداً في رأيه، حيث لم يربطها بفترة كمال أتاتورك، بل ربطها بسلاطين مرحلة التحديث؛ كمصطفى الثالث، وسليم الثالث، وسلطان محمود، وأخيراً السلطان عبد المجيد... وفي الفترة المعاصرة مدحت باشا، وأحمد رضا، ومصطفى كمال.

وعند قراءة عناوين الفصول الثلاثة ندرك أن تركيا مرت بثلاث مراحل أثناء نهضتها:

الفصل الأول : تركيا المعاصرة والإصلاحات.

الفصل الثاني : تركيا المعاصرة (تركيا الفتية).

الفصل الثالث : تركيا المعاصرة (الآداب وجودة التعليم).

ومن خلال هذه الأوجه، يصل البارون إلى نتيجة أن تركيا تطورت بفعل عوامل داخلية وأخرى خارجية، كان لأوروبا

وحضارتها دورٌ مهمٌّ في بلورتها: "**لم تكن تركيا، حسب اعتقادي، بلدًا رجعيًا أو مقاومًا للتقدم الذي يتم تصوره بشكل شائع. كانت دائمًا على اتصال بالأفكار الأوروبية، التي تابعتها بشغف أكثر أو أقل، وتأخير طويل أو أقل. ولا يجب أن -ننسى علاوة على ذلك- أن تركيا إلى غاية جيلنا كانت إمبراطورية واسعةً**"[1].

2- التجربة المصرية

خصص للتجربة المصرية أيضًا ثلاثة فصول، حيث تطرق في الفصل الرابع إلى مصر المعاصرة من خلال رواد النّهضة، مبرزًا الرحلات إلى أوروبا كأحد أهم معالم نهضة مصر. وقد وضع رحلة الطهطاوي أنموذجًا للرحلة الناجحة في فهم الغرب ومحاولة نقل تلك التجربة نحو مصر، وقد تعرض إلى كتابه المشهور "تخليص الإبريز في تلخيص باريز". ثم ذكر تأثير حفر قناة السويس على نهضة مصر.

تحدث في الفصل الخامس عن روح الدين الجديدة التي ظهرت في الفضاء الإصلاحي المصري، وركز بالخصوص على حركة التنوير الدينية التي خاضها كل من محمد عبده، والشيخ الطهطاوي، إضافة إلى مؤسسة الأزهر الشريف.

وتحدث في الفصل السادس عن الحركة الوطنية المصرية، وقد مثلها في نموذجين، هما: سعد زغلول ومصطفى كمال،

(1) Les penseurs d'islam ; TV, p.125.

حيث يعتقد أن التيار الوطني المصري كان له دور مهم جدًا في نهضة مصر واستقلالها: "**في مارس 1922، تم منح رضا مشرِّف للقومية المصرية، من خلال رفع الحماية عن مصر، لقد أعلن عن الاستقلال من خلال صوت اللورد أللّنبي (إدموند هنري هاينمان أللّنبي) Allenby. لقد بعثت مصر ممثليها نحو الخارج، ومُنح الخديوي لقب الملك**"[1].

3- التجربة العربية والإفريقية

تحدث في الفصل السابع عن العرب بشبه الجزيرة العربية وإفريقيا ممثلة في السودان وتونس والمغرب.

يرى أن الوهابية تنقسم من حيث البنية الثقافية إلى قسمين: الوهابية التقليدية والوهابية المعاصرة، فالوهابية التقليدية انطلقت من أرض نجد إبان الوجود العثماني، وكان الغرض من ظهورها مع مؤسسها الأول الشيخ محمد بن عبد الوهاب إعادة إصلاح الحياة الإسلامية وإحيائه بعد أن تفشت فيه البدع والخرافات، وعادت بعض القبائل العربية إلى بدائيتها.

يصف البارون المنطقة حينها بقوله: "**ظهرت في هذه المنطقة، قبل قليل من الوقت الذي ذكرناه، طائفة مثيرة للاهتمام إلى حد ما، والتي تسببت في الكثير من الارتباك للإسلام (يقصد أحدثت تحولاً جذريًا في المكون الحاضر)، تلك الطائفة هي الوهابية**"[2].

(1) Ibid., p.306.
(2) Ibid., p.308.

لقد استطاع الشيخ محمد بن عبد الوهاب من خلال مشروعه السلفي الإصلاحي أن يُعيد الإسلام إلى أصوله الأولى. وهذا العمل الإصلاحي أعطى جملة من النتائج المهمة، كان أولها تنقية الإسلام من الخرافات والبدع، وثانيها توحيد القبائل العربية المتصارعة تحت راية واحدة، ممثلة في محمد بن سعود أمير منطقة نجد .

ثم ظهرت بعدها الوهابية المعاصرة، التي تزامنت مع تأسيس المملكة العربية السعودية، والتي كانت مهمتها تأسيس دولة معاصرة وتصدير الوهابية إلى العالم الإسلامي باعتبارها حركة إصلاحية مرتبطة بالقرآن والسنة.

ويشير في المضمار نفسه إلى السودان، الذي ظهرت به عدة مدارس إصلاحية، كان أشهرها مدارس تومبكتو. كما ظهرت بتونس والمغرب ألمع الجامعات العربية، خاصة جامعة فاس بالمغرب.

4- التجربة الهندية

تحدث في الفصل الثامن عن الهند المعاصرة، مركزًا على تحليل الجدلية التاريخية الموجودة بين الهندوس والمسلمين، تلك العلاقة المتوترة عبر التاريخ، وهي التي تشكل دومًا المشهد الهندي.

وتعرض للطائفة السيخية من حيث معتقداتها وتصوراتها، وكذا دورها في تشكيل المشهد الهندي.

كما تحدث عن أهم المدارس الإسلامية التي تعمل في هذا الفضاء المتنوع والمتناقض، وخص مدرسة السيد أحمد خان: "**العمل الأكثر أهمية لأحمد خان هو تأسيسه لجامعة عليكرة الإسلامية**"[1].

يعتبر ثورة سباي Cipayes[*] من أهم التحولات التي حدثت بالهند، وقد أدت إلى تنمية الوعي الهندي بالاستقلال والتحرر من التبعية البريطانية.

5- التجربة الفارسية

كان لبلاد فارس تجربة رائدة في النهضة والاستفادة من التراث الغربي، وللفرس خصوصية منذ القدم، تتمثل في التفاعل مع الآخر والاستفادة منه.

تحدث بإسهاب عن دور الآداب والتصوف في بلورة مشهد ثقافي فارسي متميز، خاصة من خلال عنايات خان، وسادري مقصودوف، وغيرهم من الفلاسفة والأدباء.

ركز على عنصر مهم في التجربة الفارسية، يتمثل في النزوع نحو تشكيل قوة عسكرية جد حديثة، وهذا ما يتجلى في أعمال نادر شاه Nadir Shah، الذي قال عنه: "**قال دروفيل Drouville** :

---

(1) Ibid., p.368.

(*) ثورة شعبية في الهند قامت سنة 1857، ضد شركة الهند الشرقية. وهي أول تمرد عسكري هندي على بريطانيا.

لقد مكّنه الانضباط من التفوق والانتصار على جميع من قاتله من الجيوش الأوروبية، وليس فقط أن يشابهها في القوة"[1].

وفي ختام القسم تحدث عن مكانة المرأة في الثقافة الإسلامية، حيث تباين وضعها من بلد إلى آخر، وقد لفت الانتباه إلى أن المرأة شاركت في ثورات النّهضة والتقدم خاصة تركيا وإيران، ويبدو حضورها جد خجل في دول شمال إفريقيا على العموم.

****

****- تقييم ونقد**

من خلال قراءة العمل الموسوعي الضخم، سنسجل بعض الملحوظات النقدية المقتضبة :

1- بناء العمل الموسوعي وأسلوب الكتابة

بناءُ العمل وتقسيمه عبر الأجزاء الخمسة لم يكن مبنيًا على أسس منهجية، فالقسم الأول يبدأه من شخصية أبي جعفر المنصور، ويجعل الملوك هم الحلقة الأقوى في تاريخ الإسلامي، بيد أنه كان من المنطقي أن يكون الجزء **الثالث هو الأول**، نظرًا إلى أنه يتطرق فيه لبداية الإسلام، ويتحدث فيه عن النبي محمد (ﷺ)، والقرآن، والخلفاء الراشدين.

إن التراث الإسلامي كله مبني على أساسين: النبوة والوحي. وعليه، يكون البارون، من خلال القفز على مرحلة صدر

(1) Les penseurs, TV ; p.386 .

الإسلام، قد انتهج منهج الطمس، أو محاولة القول بأن التراث الإسـلامي صنعه من ابتدأ بهم القسم الأول، ويغدو بذلك محمد (ﷺ) والقرآن مجرد ماضٍ وذكرى، وأن حقيقة الإسلام في صانعيه من البشر.

ونسجل من ناحية أخرى التكرار الممل في كثير من الفصول، كما انتهج إلى مقاربات غير تاريخية في كثير من الأحيان، لا يسعنا ذكرها في هذا الكتيب.

ومن جهة أخرى، فإن البارون لا يحترم الترتيب التاريخي، فهو يعرض الأعلام وفق مزاجه، فمثلاً تحدث في الجزء الأول عن ابن خلدون مطولاً، وبعدها انبرى للحديث عن الجاحظ، بيد أن الجاحظ سابق عن ابن خلدون، وأدرج عنترة بن شداد في فصل الشعراء، وكلنا يعلم بأن عنترة بن شداد لا ينتمي للتراث الإسلامي.

ويبدو أن العنوان ذاته لم يكن متطابقًا مع مضمون العمل؛ إذ يحيل عنوان الكتاب "مفكرو الإسلام" إلى المنظرين والفلاسفة والأصوليين والفقهاء، بيد أن مضمون الكتاب تعرض بصورة أكبر إلى التراث والموروث الثقافي والتاريخي، وكان من الأولى تسميته بـــ"**التراث الإسلامي**".

ونسجل من جانب آخر أن البارون غلب عليه السرد التاريخي، فتحول من محلل إلى مؤرخ للأفكار، حيث لا تجد في متون العمل أي رؤية جديدة، ولم يُقدم لنا أي جديد سوى

إعادة رسكلة المعلومات وتحيينها ضمن مشهد استعراضي أكثر منه نقدي تحليلي.

2- التعميم والشمولية

امتاز العمل بالأحكام العامة والنظرة الشمولية، وتلك الرؤية هي التي جعلت **كارا دي فو** يقفز على كثير من المراحل والحقب، ولم يذكرها رغم كونها تمثل لحظة التأسيس والتقعيد، وقد سبق لكثير من النقاد أن وصفوا عمله بالموسوعي الذي ينقصه العمق، فالفيلسوف الفرنسي رينيه غيون René Guénon يقارن بين ما كتبه البارون وما كتبه ماسينيون، فيخرج بنتيجة أن ماسينيون امتاز بقراءة وفهم عميق للتراث الإسلامي، وإن غلب عليه الانحياز والذاتية في الأحكام، بيد أن البارون عكسه تمامًا: "**قابلت ماسينيون مؤخرًا؛ إنه يتكلم كثيرًا، وهناك تأثير معين فيه، والذي، علاوة على ذلك، يظهر أيضًا بأسلوبه. صحيح أن أعماله يصعب قراءتها تمامًا، ومن ناحية أخرى، إذا كان قد فهم بالتأكيد أشياء معينة، فهو لم يخترق بعد عمق الإسلام الباطني. أما بالنسبة لكارا دي فو، فهو لا يزال يفهم أقل بكثير، ومن الغرابة أنه ارتكب بعض الأخطاء الكبيرة. هو في المقام الأول مترجم، والمنفعة الرئيسة لأعماله هي أنه قام بجمع معلومات منتشرة في كل مكان**"[1].

(1) Correspondance à Guido de Giorgio, 20 novembre 1925. Vu : Comptes-rendus publiés dans la Revue de Philosophie, 1923-1924.

3- إعادة تسويق كثير من الافتراءات على الإسلام

ويبدو أن ما تحدث عنه كارا دي فو صائب في جانب معين، وهي أن الدّراسات الاستشراقية استطاعت أن تُعرف الشّرق بالأعمال الكبرى لأسلافه، لذا حاول علماء الشرق ومفكروه طبع تلك الأعمال الخالدة التي نبههم إليها المستشرقون، كمقدمة ابن خلدون، وأعمال ابن رشد، والغزالي، وابن سينا، وغيرهم من المفكرين.....

وبالرغم من ذلك التأثير الإيجابي للدراسات الشرقية، إلا أنها أيضًا حملت كثيرًا من الأحكام القاسية وغير المؤسسة، والتي نجد بعضها في متون مؤلفات كارا دي فو ذاته، الذي يحاول أن يُقدم نفسه من خلال كتبه على أنه دارس مُحايد وموضوعي، وأن ما يقدمه يعبر عن حقيقة الثقافة الإسلامية عبر تاريخها المجيد.

4- الطعن في الثوابت الإسلامية

رغم نزاهة البارون وموضوعيته بشكل عام، إلا أنه لم يتخلص من الرواسب الفكرية، وما غرسه اللاشعور الجمعي في معتقداته، فهو وإن دافع عن القرآن، إلا أنه يسوقه على أنه كتاب محمد، ونسبة القرآن إلى محمد معناها أنه ليس كتابًا من الله، ويبدو ذلك أيضًا في طرحه لمسائل جمع القرآن وترتيب سوره بالخصوص في عهد عثمان بن عفان، ونحن لا نعرف هل هي نتاج جهله بما تم فعله، أم انسياقه وراء نظرية زميله بول كازنوفا، الذي ذهب إلى القول بأن القرآن أُعيدت صياغته من جديد بمهارة لا يمكن أن تتوفر اليوم.

لقد تحدث عن شخصية محمد حديث جيدًا ومنصفًا في كثير من الأوقات، بل دافع دفاعًا مستميتًا عنه من خلال رفض الافتراءات الغربية، وخاصة أسطورة الراهب بحيرا، ولكن في المقابل اعتبر أن الوحي الذي جاء به محمد هو مجرد أقوال فلسفية وأخرى حنيفية ومسيحية جمعها محمد بنباهة.

وهذا التلميح يُراد من خلاله القول بأن محمدًا مجرد إنسان استطاع أن يقتنص الفرص ليرفع ذكره وفق بناء نظام ديني مركب من اليهودية والمسيحية، وأيضًا بقايا الإبراهيمة، وهو قول نستنتج منه نفي النبوّة عن محمد.

ومما سبق، يمكن القول بأن كتاب "**مفكرو الإسلام**" رغم النقائص المسجلة عليه من حيث المتن والمنهج، إلا أنه عمل موسوعي ضخم، يُقدم مادة تاريخية مهمة لكل من يريد أن يدرس الإسلام خارج الإسلام ذاته.

وكنا نتمنى أن يُقوم مفكر إسلامي أو مؤسسة بإنجاز موسوعة ضخمة عن التراث الإسلامي الكبير، تتجاوز النقائص والهنات الموجودة في كتاب البارون.

إن التراث الإسلامي أكبر من أن يتم عرضه في خمسة أجزاء، وأكبر من يُدرس بمنهج السرد التاريخي الذي استعمله البارون كارا دي فو. إنه تراث يحتاج إلى عمل تقوم به مؤسسة علمية وفق منهجية علمية، وتقنية متطورة، فالتنوع والتعدد، والكم الهائل، يجعل من الصعب أن يجمعه شخص واحد، مهما امتلك من أدوات البحث والتقصي.

نصوص مختارة

اخترنا مجموعة من النّصوص للبارون كارا دي فو من جل كتبه المتنوعة، والغرض من الاختيار اكتشاف طرائق تفكيره، وأساليب تحليله، وطبيعة بناء أحكامه، ومدى نزاهتها واقترابها من المعقول.

وقد رتبناها ترتيبًا تنازليًا، وفق البناء الهرمي للإسلام ذاته، حتى تكون لدينا صورة واضحة من دون تأويل أو نزوع ذاتي. حيث تركنا القارئ يكتشف البارون لوحده، دون توجيه منا أو تعليق.

**

طبيعة الإسلام

"بقدر ما يتعلق الأمر بالفلسفة، ربما تعاملنا مع موضوعنا بشكل جيد بروح فلسفية، كما اعتدنا القيام به، ولقد درسنا بعناية خاصة الجوانب النفسية، لكننا لم نهتم في هذا الكتاب بالفلسفة التقنية؛ لأننا لا نعتقد أن الإسلام الأرثوذكسي دين فلسفي ومنطقي؛ إنه دين بديهي، بسيط جدًا، ومفعم بالإيمان.

من المهم أن نعرف أن الفلسفة في العالم الإسلامي ليست نتيجة للأرثوذكسية: إنها عمل المدارس والطوائف؛ كان الأطباء

الأرثوذكس يعتنون به فقط بقدر ما كان ضروريًا لمكافحة البدعة؛ ليس للفلسفة دور دفاعي أو سلبي، إذا جاز التعبير، فهي تعمل على صد الخطأ وليس إثبات الحقيقة؛ من المفترض أن يتم إدراكها مباشرة عن طريق حدس الإيمان"[1].

**

النبي محمد

"إن محمداً كان هو النبي الملهم والمؤسس، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة التي كان عليها، ومع ذلك فإنه لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين. إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية كان يطبق عملياً حتى على النبي نفسه[2]".

**

مصادر حياة محمد

"تُقدَّم مصادر حياة محمد لنا من خلال أربعة أشكال:
1- من خلال المصادر الخاصة التي كُتبت حول حياة محمد.
2- من خلال المؤرخين العامين الذين اعتنوا بهذا الموضوع.
3- التقليديون بالمعنى الصحيح للكلمة. 4- القرآن وشُراحه (المُفسرون، المؤولون).

---

(1) La doctrine de l'slam ; p. II.

(2) نقلًا: الطرازي أبو نصر الحسني، **الإسلام الدين الفطري الأبدي**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.س، ص: 247.

يشكل القرآن مصدراً من نوع خاص، يمكن أن يكون ذا أهمية كبيرة من وجهة نظر الأفكار وعلم النفس، ولكنه يحتوي فقط على تلميحات غامضة من وجهة نظر الحقائق؛ يحاول الشُّراح توضيحها.

كان لمحمد اثنان من أهم كتّاب سيرته، ابن إسحاق والواقدي. ولا واحد من الاثنين كان معاصراً له.

ولد ابن إسحاق(*) في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، عاش أولاً في المدينة المنورة، حيث درس السّيرة من وجهة تاريخية. اجتذب لنفسه عداوة التقليديين ذوي الروح الدينية، مما اضطره إلى مغادرة المدينة المنورة عام 115، ثم توجه إلى الإسكندرية، كما مر من هناك على الكوفة ومدينة الري، وقدم إلى الخليفة العباسي المنصور. هذا الأمر منحه الوسائل اللازمة لكتابة سيرة الرسول (المغازي). ومات سنة 151هـ الموافق لـ 768م.

... ولد الواقدي(*) بالمدينة المنورة سنة 130، بعد 119 سنة من وفاة الرسول، كان يزاول في بدايته تجارة الحبوب، غير أنه كثرت عليه الديون، مما جعله يترك المدينة المنورة. وجد في بغداد الحماية من طرف الوزير يحيى بن خالد البرمكي، حيث

(*) هو: أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني (85هـ/ 703م المدينة - 151 هـ/ 768م بغداد).

(**) أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي، الأسلمي بالولاء، المدني (130هـ -207هـ) = (747م- 823م).

تم تعينه قاضي غرب بغداد. وفي عهد المأمون تم تحويله إلى نحو الحي الشرقي بالرصافة، مات سنة 207هـ الموافق لـ 823م.

ترك كتاب "التاريخ والمغازي" الذي طبعه كريمر (kremer) بكلكتا (Calcutta).

من بين المؤرخين العامين الذين كتبوا عن حياة محمد: المؤرخ الطبري، بل يجب أن نضعه في مقدمة هؤلاء المؤرخين وقد تحدثنا عنه في المجلد الأول. ونحن نجده في هذا المجلد كشارح. إن الحوليات التي قدمها هذا المؤرخ تشكل ينبوعًا مهمًا وغنيًا بسيرة الرسول، وتاريخه، ووسطه، والعادات العربية ذات الأصول الإسلامية.

... ولكن ماذا يريدون من خلال كتابة السيرة؟ لا يمكن أن تكون الأخبار كلها صحيحة. إنهم لا يتفقون دائمًا، ونشعر بذلك كثيرًا. وعليه كيف يتم تمييز الحقيقية؟ وكيف تم تشكيل تلك الأخبار الكاذبة؟ علاوة على ذلك، ما العلاقة التي تربطهم (كتب السير) بالقرآن، الذي يعد الوثيقة الوحيدة المكتوبة التي تبدو جيدًا أنها معاصرة للنبي؟ هذه هي الأسئلة التي أنتجها النقد، والتي تدفع بجد إلى حلها"[1].

**

(1) les penseurs de l'islam ; TIII ; p :(112 – 118)

أسطورة الراهب بحيرا

"من المقبول عمومًا لدى كتاب السّيرة العرب أن محمدًا تعرف على رهبان مسيحيين. حيث رأى راهبًا، وهو طفل، حين اصطحبه عمه أبو طالب إلى الشام. والراهب المعني سماه كُتاب السيرة بَحيرا Bahira. وقد التقى راهبًا آخر هو نسطور Nestor، عندما عاد إلى المنطقة نفسها في سن الخامسة والعشرين متاجرًا بقافلة خديجة.

حين بلغ محمد سن الأربعين بدأ في الدّعوة فقط، لم يكن لمحادثاته مع هؤلاء الرهبان سوى تأثير غير مباشر على مصيره. لا تزال ذكرى هذه اللقاءات غامضة في تاريخ محمد، والتفاصيل القليلة التي قدمها مفكرو الإسلام حول هذا الموضوع هي أسطورية بحتة. لقد فوجئنا إلى حد ما بإيجاد هذه الأساطير نفسها مضخمة بشكل كبير في الأدب العربي المسيحي.

حيث قام كاتب مسيحي من مصر، يبدو أنه قسيس، بتأليف قصة طويلة عن السيرة الذاتية للراهب بحيرا، التي يعترف فيها هذا الشخص المسن والذي سيتوب، ليس فقط بإعجابه بحكمة محمد الطفل، ولإيقاظ أفكاره الشابة، ولكن ليكون المكون لكل عقيدته، المحرض على كل أفعاله، المؤلف الحقيقي والمسؤول عن القرآن، ومستشاره الدائم، وملاكه جبرائيل"[1].

(1) Carra de Vaux (**La légende de Bahira ou Un moine chrétien auteur du coran**), Revue de l'Orient Chrétien, Au Bureau des Œuvres d'Orient ; Paris, 1897, p. 439.

نقد أسطورة الراهب بحيرا

"نحن لن نتحدث عن القيمة التي تنسب إلى هذا المستند الوحيد، ونحن لا نرى أي سبب قوي لإسناد أي معطى. ولكن يجب الاعتراف بأن هذه القصة قد تم ترتيبها ببعض المهارة.

إن الفرضية القائلة بأن محمدًا كان دجالاً، نادرًا ما يتم استغلالها بمزيد من السعادة. لا زلنا لا نعرف، بعد كل شيء، ما هو القرآن.

نسبه محمد (القرآن) إلى رئيس الملائكة جبرائيل. وادعى البعض (المسيحيين) أن هذا الملاك لم يكن سوى راعٍ جميل.

لن يكون أقل خطورة ولا أقل تصديقًا القول بأن النبي العربي ألف كتابه بفعل تحريض أولي من بعض رهبان مسيحيين، إن هذه القصة غريبة الأطوار وخرقاء"[1].

**

شخصية المسيح في الإسلام

"يعد شخص "يسوع" بشكل عام أكثر احترامًا من قبل المسلمين أكثر من القرآن. يسوع يحظى بشعبية في الإسلام تحت اسم سيدنا عيسى؛ وفقًا للأساطير الأخروية، يجب عليه الظهور مرة أخرى في نهاية الزمان.

(1) Ibid., p.454.

لقد كان الإنجيل معروفًا للعديد من المؤلفين المسلمين أكثر من محمد. يستلهم منه البعض من خلال الامتناع عن الاقتباس منه؛ وصحيح أن البعض الآخر اقتبس في بعض الأحيان من نصوص الإنجيل غير الموجودة.

وبينما قُلل من شأن يسوع [عدم الاعتراف بالتثليث من قبل المسلمين اعتبره البارون تقليلاً من شأن المسيح]، اعترف محمد بالإنجيل باعتباره من الوحي الإلهي؛ بالنسبة له هو واحد من "الكتب" السّماوية، مثل الكتاب المقدس (التوراة)، وهذا يعني أحد الكتب النبوية والمُوحى بها. والمسيحيون، وكذلك اليهود، هم "أهل الكتاب"، على هذا النّحو فهم متميزون عن الوثنيين والكافرين. إنهم محترمون من قبل المسلمين، يتمتعون من حيث المبدأ ببعض الصلاحيات. لقد تكرم النبي العربي نفسه لامتداحه في بعض الأحيان (على لسان القرآن): ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ سورة آل عمران*: 113، 115."[1]

(*) أخطأ البارون في رقم الآيتين، حيث أشار إلى الآيتين: 109، 110، والخطأ نتج لاعتماده على ترجمة Albert Kazimirski de Biberstein

(1) Carra de Vaux, **La doctrine de l'islam**, Gabriel Beauchesne & Cie, Éditeurs Ancienne librairie Delhomme & Briguet, 1909 ; p.103.

الصلاة في الإسلام

"هذا الإله، الذي آمن به الإسلام وأكده، يتم تكريمه من خلال الصلوات. هناك خمس صلوات في اليوم. يبدو هذا كثيرًا؛ لكنها تعتبر كل(*) العبادة الإسلامية. هذا الدين ليس له ما يتوافق مع القُداس المسيحي. إنها تتطلب التضحية، لكن بمعنى شديد، كما سنرى في مقال الحج، ولا علاقة لها بفكرة القداس.

هذه الصلوات الخمس للإسلام لها تأثير رهباني؛ إنهم يستعيدون الساعات الكنسية للمسيحية. ليس من الضروري، في الواقع، استخدام الأساطير لإدراك أن هذا المبدأ مستمد من التأثيرات الرهبانية المسيحية. كان الإسلام على دراية بهاته الإعارة، كما نرى من خلال الأساطير وبعض الحقائق التاريخية إلى حد ما.

إذا تمت ملاحظة هذا المبدأ جيدًا، فسيبدو العالم الإسلامي برمته كديْر كبير. ولكن هذا التشابه موجود قليلاً. الحياة الرهبانية هي في الأصل شرقية. وفي الحياة الشرقية، التأمل والدين والأحلام لها مكان كبير، قريبة جدًا من الحياة الرهبانية.

(*) الصلاة في الإسلام ليست هي كل الإسلام كما أوردها البارون، بل هي رأس الإسلام وعموده، لقوله ﷺ: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله". رواه الترمذي، وصححه الألباني.

عندنا مجال العمل يهيمن علينا، ويتحول في بعض الأحيان إلى نوع من التحريض. الشرق هو بالأحرى أرض الهدوء والسكينة والاستقالة. قد نحاول من خلال أخذ هذه المصطلحات القول بوجه سيِّىء، إنها مسألة كسل. لكن هذا الحكم سيكون غير عادل. من الأفضل أن ندرك أننا والشرقيون لدينا مفاهيم مختلفة عن الحياة.

الصلوات الإسلامية الخمس، باللغة العربية، يطلق عليها بالتركية صلاة أو نماز، هي: صلاة الفجر، ويقال من الفجر حتى شروق الشمس. صلاة الظهر، التي تناسب مع ساعة الزوال، صلاة العصر التي تكون غالبًا على الساعة الرابعة، ثم صلاة المغرب التي تكون ساعة غروب الشمس، وصلاة العشاء، التي تبدأ من لحظة الظلام الكامل حتى الفجر. تقام صلاة الجمعة في المساجد الكبيرة، مع قداسة خاصة. هذا هو ما تتكون منه كل عبادة الإسلام، باستثناء الحج"[1].

**

الزّكاة

"الزكاة هي واحدة من أعظم قوانين [أركان] الإسلام. إنه ركن مهم جدًا مثل الصّلاة. كَتب عنه الغزالي، فقال: "جعل الله الزكاة ركنًا من أركان الإسلام"، وأضاف مرة أخرى: "يتجلى دين الإسلام بخمس شهادات: التأكيد على عدم وجود إله إلا الله

(1) La doctrine de l'islam ; p.12.

وحده لا شريك له، وأن محمدًا ﷺ خادمه ورسوله، والاجتهاد في الصلاة، وإيتاء الزكّاة".

يمكن النّظر لهذا الركن بطريقتين، خاصة أنه يحتوي على بعدين مزدوجين، أحدهما في النظام الأخلاقي، والآخر في النظام السّياسي. تهدف الزكاة من وجهة النظام الأخلاقي إلى تطوير الفضائل كاللّطف والكرم، وتؤدي إلى الأعمال الخيرية، وهي تُعَود المؤمن على مساعدة جاره أو قريبه. يتم توسعتها أكثر وتحويلها إلى تصوف، حيث نرى فضيلة الزكاة تندمج مع روح الانفصال عن أشياء العالم، هذه الفضائل في الأصل مسيحية.

تهدف الزكاة في النظام السّياسي إبان الأيام الأولى للإسلام، إلى توفير احتياجات الجهاد؛ كما أنها تُستخدم لدفع ما هو مستحق على وجه الخصوص إلى النّبي وخلفائه، لتعويض الفقراء الذين يقدمون الخدمات العامة، ولتوفير النفقات العامة للمجتمع. بسبب هذه الوظائف المتنوعة، تصبح الزكاة "قانونية"، وتندمج مع الضريبة، بهذا المعنى، تصبح قانونًا، وأصلها يهودي"[1].

**

الحج

"إن الحج الإسلامي ليس مجرد عمل تقوى، إنه التزام صارم، وقانون مطلق ومن المفترض أنه إلهي. يروي الإمام

(1) La doctrine de l'islam ; p.79.

الغزالي هذه الكلمة النشيطة التي تُنسب إلى النبي: "من مات ولم يحج مات يهوديًا أو نصرانيًا".

الطابع الإجباري لهذا المبدأ هو بالضبط غريب عنا بالنسبة لنا، وهو يبتعد عن كل ما نعلمه، إننا نجد أنه من الطبيعي أن يكون لدى المؤمنين إخلاص للأماكن المقدسة، وأنهم يحبون زيارة الأماكن التي عاش فيها قادة دينهم، حيث ماتوا، حيث ربما عانوا من الشهادة، حيث صلوا، وتعلموا، وأدوا الكرامات؛ لكن هذه الزيارات هي فقط، في نظرنا، أعمال تقوى. إنهم يشكلون، حسب شعورنا، أعمالاً خارقة التنظيم؛ لا يمكن فرضها بموجب القانون الأساس.

فكرتنا الدينية، من حيث المبدأ، مستقلة عن ظروف المكان، على العكس من ذلك، في الإسلام قانون المكان هو تأسيسي وأساس.

يوجد في العالم الإسلامي مكان أو رقعة جغرافية ذات خصوصية مقدسة، إن الزيارة، وهي خطوة من نوعها تهدف إلى ربط المؤمن بهذا المكان، وهي تُكمل الإيمان، الذي ما زال غير مكتمل بعد. يجب أن نحج مرة واحدة على الأقل في حياتنا؛ وإلا فإننا لسنا جزءًا من جماعة المؤمنين؛ ولا ننتمي إلى الأمة، والمجتمع، والأسرة"[1].

**

(1) La doctrine de l'islam, p. 106.

الجهاد

"ارتبط مبدأ الدعوة في الإسلام بالجهاد، الذي فرضه محمد بصورة غريزية، وقد أثمرت بعده مباشرة. حيث إن النبي محمداً نفسه قد غزا العرب فقط، بعد وفاته طبق المؤمنون حماستهم وفق ركن الجهاد، لقد ألقوا أنفسهم على بلاد فارس وسوريا ومصر التي غلبوها؛ وواصلوا هذا الجهد والضّغط لعدة قرون، حيث تمكنوا من إسقاط الإمبراطورية البيزنطية. ونحن عشناها على أبواب فيينا Vienne، كما هددوا قبلها إيطاليا واستقروا بإسبانيا.

إن حق الهجوم وفقًا لضميرهم لم يخذلهم يومًا، ولم يحتاجوا للبحث عن عذر: المهم المضي قدمًا عندما تستطيع، حيث أخبرهم القرآن باختصار؛ اذهب إلى الحرب "عندما تكون أنت الأقوى"[1].

**

المهدي المنتظر

"أنجب المذهب المهدوي العديد من البدع. وسهَّلت العديد من الثورات، واستخدمها عدد كبير من السّاسة المغامرين. ويعتقد الـمُبتدعة الذين ارتبطوا به أنه عندما تَحُل الساعة سيكون المهدي قد أنهى غزوته، وستكون سعادة العالم مضمونة لقرون طويلة متعاقبة.

(1) La doctrine de l'islam ; p.144.

في عقيدة الإسلام الأرثوذكسي (السني)، عادت الفكرة نفسها إلى الظهور بشكل ضئيل [عن الشيعة]. المهدي ليس له شخصية المؤسس، ولا يمكن وضعه في حقبة زمنية لا يزال من الممكن اعتبارها أصل الزمن، وعلى العكس من ذلك، يجب أن يظهر في نهاية الزمان، بمساعدة الأرواح السماوية، سوف يجعل الإسلام ينتصر على كل المعمورة، لكنه لن يحدث إلا لفترة وجيزة.

تختلف عدد السنوات التي سيستمر حكمه فيها، وفقًا للسنة الإسلامية الأرثوذكسية؛ ستكون سبع سنوات حسب البعض، والبعض الآخر يجعلها في أربعين سنة. ولكن في كل الأحوال، هو زمن وجيز إلى حد ما. للمهدي دور مشابه لدور (**إلياس** d'Elie) في العرف المسيحي. بعد هذه اللحظة من السّعادة، سيتبع العالم مصير ومجراه.

يجب أن يعود يسوع أيضًا في هذا الزمان، سنراه ينزل بدمشق فوق المئذنة، التي تسمى المئذنة البيضاء، في المسجد الأموي. وسيقود المهدي، وسيؤُمُّه في الصلاة من بعده.

ستظهر وحوش مختلفة، وتشرق الشمس من الغرب، عندها سيخرج شعب يأجوج ومأجوج من بوابات بحر قزوين ... ويأتي يوم القيامة.

هذا الشكل المختزل لنظرية المهدية، من قبل الأرثوذكسية، أصاب الشعوب الإسلامية دائمًا بشكل من البدع، ووفقًا لهذا

التصور، سيكون المهدي مؤسس الإمبراطورية، ومكونًا لسلالة مُقدر لها أن تستمر لفترة طويلة، ....

إن الانتظار الخرافي للرجل الإلهي هو شعور دائم بين الشعوب الإسلامية، لقد شوهدت المهدية الزائفة في جميع حقب تاريخهم. وكانت الأكثر شهرة تلك التي نجحت في تأسيس سلالة الفاطميين؛ وكانت هناك واحدة في مصر في زمن بونابرت.

وفي عصرنا، تحدث انتفاضة قام بها المهدي [محمد المهدي بن عبد الله بن فحل بالسودان] بقتل جوردون المحاصر في الخرطوم. كما تم الإبلاغ عن حالة واحدة في المغرب في عام 1908. يُعد الاعتقاد المهدوي خطرًا دائمًا على أي سلطة لديها جماعات مُسلمة في إمبراطوريتها.

بعيدًا عن هذه النظرية المهمة والفضولية، التي أعطت شكلاً منهجيًا وجانبًا غامضًا للاعتقاد المشار إليه ضمنيًا في القرآن، وإلى تحقيق نجاح نهائي وعالمي للإسلام. إننا لا نجد شيئًا مثيرًا للاهتمام نلحظه في المفاهيم التي شكلها المسلمون عن المستقبل. يجب ألا يكون هناك تطور لهم في الدين، ولا تطور في العقيدة، ولا تقدم في الطقوس، ولا تغيير في شكل العبادة وممارسة التقوى.

لم يكن هناك إلى يومنا هذا أي فكرة أو مفهوم واضح بالنسبة للشعوب الـمُحمدية، بما فيه الكفاية، وفهم عام للتقدم المحتمل في العلوم، في الحضارة، وفي الصناعة، وفي الفنون؛

لا يوجد تصور للتحسين المحتمل والمستمر في السّياسة أو الاقتصاد أو العدالة أو الإدارة"[1].

**

التراث الإسلامي

".. أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً. فعلمونا استعمال الصفر وجعلوا (الجبر) علمًا متقنًا وتقدموا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية. وهم بلا منازع مُوجدوا علمي المثلثات المستوية والكروية اللذيْن لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الحقيقة والإنصاف، كما أنهم عملوا في الفلك أرصادًا عديدة قيّمة، وحفظوا لنا بترجماتهم عددًا كبيرًا من كتب الإغريق التي ضاعت أصولها..

والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب. إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى، في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها. ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا كانت مراكش والشرق محط أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه. في هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب، كما كان

(1) La doctrine de l'islam ; pp. 260,261.

العرب قد ترجموا آثار الإغريق. وهكذا كانوا همزة وصلٍ بين الثقافة القديمة والمدنية الجديدة، عندما عادت النفس الإنسانية في عهد الإحياء العلمي لتمتلئ ثانية بحب المعرفة والاستقصاء، ولتتنبه بوميض من العبقرية العلمية. فإن هي أفلحت في سلوك السبيل الأقوم للعمل، وإن أتيح لها الإنتاج والابتكار، فما ذلك إلا لأن نفسية العرب قد حفظت وأكملت مختلف فروع العلم، وصانت روح البحث العلمي حيّة تائقة للتحرر والحركة، متهيئة للمكتشفات المقبلة.."[1].

**

رموز الفلسفة السياسية في الإسلام

"تعد الفلسفة السياسية فصلاً رائعًا من تاريخ الآداب بالشرق، وفي اللغات الثلاث الكبرى العربية، والتركية، والفارسية. ونجد حول هذا الموضوع عدة مؤلفات ذات قيمة عالية، وهذه المؤلفات تمتاز بطابع التمايز فيما بينها، فبعضها عن المدينة الفاضلة، كما هو الحال عند الفارابي، الذي حاكى فيه الفلسفة اليونانية [خاصة جمهورية أفلاطون]، وبعضها كرسالة الماوردي... التي هي عبارة عن نظرية فلسفية من خلال الفقه القرآني. وبعضها أعمال نقدية مشهورة جدًا، كما هو الحال فيما كتبه عبد الرحمن ابن خلدون في "المقدمة"، وهي عمل تاريخي بالغ الأثر، عميق الملاحظة.

(1) نقلًا: عماد الدين خليل، **قالوا عن الإسلام**، دار الندوة العالمية، الرياض، ط1، 1992، ص: 380.

وبعض المؤلفات كتبها وزراء فلاسفة، استنبطوا نظرياتهم السياسية من خلال ممارستهم للسياسة، كما تعكسه كتب نظام الملك وأبي الفضل، ومنها أيضًا ما هو لشعراء صوفيين؛ مثل سعدي، أو مؤلفين شعبيين؛ مثل "كليلة ودمنة" [ابن المقفع]. وبعض المؤلفات لمواطنين أحرار وذوي روح فطنة، الذين فكروا في حكوماتهم ومصير بلدهم، مثل ما كتبه القاضي أبو يوسف الذي عاش زمن هارون الرشيد، أو مثل ما كتبه قوجي بك، الذي ألف في القرن السابع عشر، وسُميّ بمونتسكيو الترك. وعليه، فإنه من السهل تأليف مجلد حول هذا الموضوع...."[1].

**

الجاحظ الفيلسوف الحر

"يُعتبر الجاحظ من مؤلفي الصدر الأول (القرن التاسع ميلادي)، وكان من أهل البصرة، مدينة قوية ثقافيًا، ومركز الدراسات الدينية والفلسفية. انخرط في فرقة المعتزلة الكلامية، التي ترأسها أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار المعروف بالنظّام، ثم صار رئيسًا للمدرسة التي تحمل اسمه.

المعتزلة هم كلاميون عقليون، أو يمكن عدهم من أحرار الفكر، شريطة ألا يُفهم من هذه الكلمة أنهم غير مؤمنين، بل هم فلاسفة يعالجون إشكاليات الدين كما يشاؤون، دون الاحتكام إلى حل تفرضه سلطة ما.

(1) Les penseurs de l'islam, T1, pp.272 ;273.

كان الجاحظ بحاثة لامعًا، يمتلك خطابًا جميلاً، مع وجه دميم. حين قدم على الخليفة المتوكل ليكون مؤدبًا لأولاده، كره الخليفة منظره، فمنحه عشرة آلاف درهم ثم صرفه"[1].

**

الكندي

"إنه من الاثني عشر عبقريًا الذين ظهروا في العالم. وشملت علومه ومؤلفاته: الطب والرياضيات والفلك والكيمياء والفلسفة والمنطق والعربية والموسيقى والجغرافية. كانت نشأته الأولى في الكوفة، حيث كان والده أميرًا عليها في خلافة هارون الرشيد العباسي، وقيل في روايات أخرى: إنه من مواليد البصرة"[2].

**

الفارابي

"أما الفارابي المعلم، الثاني بعد أرسطو، وأحد أساطين الأفلاطونية الحديثة ذو العقلية التي وعت فلسفة الأقدمين، فقد كتب رسالة جليلة في الموسيقى، وهو الفن الذي برز فيه، نجد فيها أول جرثومة لفكرة النسب (اللوغارتم)، ومنها نعرف علاقة الرياضيات بالموسيقى"[3].

---

(1) Ibid., p. 294 .

(2) نقلًا عن: الغراري، حليمة، **بناة الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية**، المكتبة العربية الكبرى. ص: 11.

(3) المرجع نفسه، ص:26 .

الغزالي

"لا أعتقد أن الغزالي قد مر بهذه المراحل المتعاقبة، قبل أن يلمح الروح الباطنية للحياة. عهد إليه في طفولته برعاية صوفية، وتحيط به في طفولته شخصيات متدينة؛ من الواضح أنه هو نفسه ولد مع التقوى والتأمل.

التغيير الذي حدث فيه حين استقال من منبره، لم يكن ذا طبيعة فكرية؛ ولكنه ذو طبيعة أخلاقية، لم يكتشف التصوف، لقد كرس نفسه له فقط. هو نفسه حين يسرد قصته، لا يقول أي شيء آخر.

يجب أن نعترف بأن الغزالي لم يغير فكره الفلسفي، بل إنه ببساطة حصر نفسه في الاستسلام لتطلعاته الكامنة والبعيدة التي سيطرت عليها روحه بعد تذوق العلم والسمعة والثروة. ثم سئم منه.."[1].

**

نظرات حول مقدمة ابن خلدون

"لا نستطيع تتبع ابن خلدون في كل ما قاله في مختلف العلوم، إنه لا يقدم لنا أساسًا ملخصات لها ولا مبادئها، بل يذهب دومًا وفق تلك الروح الفلسفية، فيقدم لنا ملحوظات ثاقبة، ويوجهنا نحو ما يجب أن نفكر فيه حيالها، وما تنطوي

(1) Carra de Vaux, **Ghazali**, Félix Alcan, Paris, 1902, p.46.

عليه من فوائد ومنافع، وما ضمانتها، وما شروط تطورها وتقدمها، إلخ..

إن هذا التأملات مدعومة دومًا بشواهد أحسن اختيارها، فأحيانًا يذكر أشهر المؤلفين وأثمن الكتب في ذلك العصر، وتكون هذه إشارة نافعة.

تشتمل المقدمة على فصول خاصة بفنون الإدارة، والزراعة، والعمارة، والنجارة، والحياكة والخياطة، وأيضًا على فنون التوليد والطب، والغناء، والوراقة، والعلوم القرآنية، والعلوم العددية والرياضية من الحساب، والجبر، والهندسة، والبصريات والفلك. وأيضًا على علوم الكمياء، والسيمياء، والمنطق، والنحو والآداب...

وضمن هذا الفضاء الزاخر بالأفكار والوقائع، نختم قولنا عن ابن خلدون، مقتبسين شاهدًا طريفًا واحدًا من فصل الوراقة، حيث يقول: "لانتساخ العلوم وكتب الرّسائل السّلطانيّة والإقطاعات، والصّكوك في الرّقوق المهيّأة بالصّناعة من الجلد، لكثرة الرّفه وقلّة التّآليف صدْر الملّة كما نذكره، وقلّة الرّسائل السّلطانيّة والصّكوك مع ذلك، فاقتصروا على الكتاب في الرّقّ تشريفًا للمكتوبات وميلا بها إلى الصّحّة والإتقان. ثمّ طما بحر التّآليف والتّدوين وكثر ترسيل السّلطان وصكوكه، وضاق الرّقّ عن ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه، وكتب فيه رسائل السّلطان وصكوكه. واتّخذه النّاس من بعده صحفًا لمكتوباتهم السّلطانيّة والعلميّة. وبلغت الإجادة في

صناعته ما شاءت. وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق"[*].

إن هذا الاهتمام بالبحث التاريخي وأسباب الاختراعات والتقدم في كل العلوم والفنون، يعطي لابن خلدون، المؤلف الإفريقي في القرن الرابع عشر، مكانة في صف ألمع من أنجبتهم أوروبا في العصر الحديث"[1].

**

المقريزي

"إنما الذي يعجبنا فيه [المقريزي] هو فضوله العقلي، ففضوله حيوي جداً، مارسه على أمور كثيرة، ويحمله على البحث عن المعلومات في أي موضع كان، جاعلاً إياه خيراً كله.

وجه له النُّقاد جملة من الانتقادات، فعندما تُحلل مؤلفاته، لا يُرى فيه إلا القليل من الإبداع، حيث ألفت من قطع مستعارة من مؤلفين آخرين، وُصل بعضها ببعض كما توصل قطع الخزف. غير أنه من الصدق القول بأنه أحسن اختيارها في أغلب

(*) اعتمدت على النص الأصلي لابن خلدون، لأن النص المترجم من قبل البارون لا يتطابق في كثير من الجمل مع المصطلحات والمفاهيم التي استعملها ابن خلدون. راجع: تاريخ ابن خلدون، الجزء الأول، دار الفكر، بيروت، ص: 532.

(1) Les penseurs de l'islam, TI , pp.292, 293.

الأحيان، وأنها في معظمها تعد وثائق ثمينة، وتعد في مجموعها أعمالاً غنية، زاهية التصوير، وفيها علم كثير، وتتجاوز -بدون شك- بالنفع والإمتاع جميع ما ألفت منه.

لم يكن المقريزي مجرد جَماعة فحسب، بل كان جَماعة ولكن بذكاء وفطنة كبيرة"[1].

**

الطفل والتربية

"لن يجد المرء في الشرق الإسلامي هذا الذوق الفطري للتعليم، هذا الجذب للبحث عن المناهج، هذه الرغبة في التطور في مثل هذه المسائل؛ على الأقل، لم يتم العثور عليهم حتى وقت قريب؛ لأن المسلمين في هذه الأيام أصبحوا أكثر اهتمامًا بهذا الموضوع.

لم يهتم المسلمون بالطفل مثلما لم تهتم به المسيحية. الطفولة في الديار المحمدية بسيطة، ويبدو أنها سعيدة للغاية. هناك اقتباسات قليلة جدًا من القرآن في هذا الفصل؛ يحتوي الكتاب المقدس (القرآن) على آيات قليلة فقط عن حقوق الأيتام وحمايتهم. الحكايات التاريخية عن الطفولة هي أيضًا نادرة جدًا في الأدب الإسلامي. تم كتابة أطروحات ممتازة عن التعليم باللغة العربية في العصور الوسطى؛ لكن مؤلفوها عرب مسيحيون.

(1) Les penseurs de l'islam, TI, p.148.

لقد أهمل المفكرون المحمديون هذا الموضوع قليلاً، أو أنهم جلبوا له أصالة بسيطة"[1].

**

الشيعة والزيارة

"بلاد الفرس هي أكبر بلد للزيارة، كل الطبقات الفارسية متحمسة لأداء هذه الزيارة، الفقراء يؤدون الزيارة سيرًا على الأقدام، والسّادة الأغنياء يزورون بأبهة، محاطين بعائلاتهم، ويقطعون الطريق على مراحل صغيرة، والأضرحة التي يزورها الشيعة هي بشكل عام: مراقد الإمام علي وأولاده، وبعض الأئمة الآخرين من أهل البيت (...).

إن المرقدين المهمين جدًا اللذيْن يزورهما الفرس هما في النجف وكربلاء. لا نعلم بالضبط أين دفن الإمام علي. إن الروايات التاريخية تقول بأنه قتل أمام الجامع الكبير في الكوفة، ثم نقل جثمانه إلى مسافة ما، إلى الحيرة التي هي اليوم النجف. وتقع النجف على ناحية الشمال من بحيرة تحمل الاسم نفسه. إن الجامع الذي فيه الإمام علي مقدس جدًا. وقد بُني الضّريح في مركز فناء مستطيل، جدرانه مزخرفة ومحلاة بالذّهب وببلاط مزين. أمام الباب نافورة من البرونز الصقيل ذات رونق، وترتفع قبة مذهبة أعلى الضريح بين أربع منارات في الزوايا

(1) La doctrine de l'islam, p.195.

الأربع مذهبة هي الأخرى. إن المنظر الإجمالي عندما ينظر إليه من بعيد يبدو كصرح مُذَهب أخاذ"[1].

***

أصل الأرقام العربية

"كان سؤال أصل الأرقام موضع نقاش كبير. كنا قد تعاملنا مع ذلك في مقال نشرته المجلة العلمية (La revue Scientia). وخلصنا إلى أن الأرقام مأخوذة من المدارس قديمة تعود للأفلاطونية المُحدثة، وإلى الفيثاغوريين ببلاد الفرس؛ نشير أيضًا إلى كيفية تشكيل الأرقام التي تمثلهم. ومن هنا سنقدم مختصراً لهذه الذاكرة.

نعلم بأن العرب الذين ننسب لهم الأرقام [1، 2، 3 ....]، هم ذاتهم كمخترعين لا ينسبونها إليهم، بل ينسبونها أنفسهم إلى الهنود، وكما نحن ننسب [للأرقام] كلمة "العرب"، فهم ينسبونها لكلمة هندي بمعناها العادي والهندي.

إن التمسك بهذا التقليد المزدوج، يجعل تاريخ الأرقام يحل هذا المشكل على مرحلتين: أن فكرة الأرقام ولدت بالهند، ثم تم تحويلها إلى الشرق، وخصوصا الفارسي- العربي، وبعدها حولها العرب إلى الغرب. ولكن ليست هاته الخلاصة الذي ينتهي به النقد"[2].

(1) **Les penseurs de l'islam,** pp . 24, 25.

(2) Les penseurs de l'islam, TII, pp. 102, 103.

ألف ليلة ولية

"ومن الممتع دراسة ألف ليلة وليلة، فهي من فصيلة القصص والأمثال، وهي عمومًا بعيدة كل البعد عن المذاهب الدّينية، ويمكن إدراجها على أنها أدب بورجوازي، يعارض بطابعه المتوسط دون حماسة بهاء الرونق ونسق الرواية. توصي أدبيتها بالتوسط والاعتدال في اللّذات، وعدم الثقة والإذعان للقدر، كما تؤمن بالمشاعر الكريمة على مضض، وهي لا تخفي مقت القسوة، وتقدر في الوقت نفسه الدهاء والنبوغ ..."[1].

**

الإسلام والغرب

"أما بالنسبة لتطور الإسلام، على العكس؛ كنا نشعر بقلق كبير إزاء ذلك، لكننا واجهنا صعوبة خطيرة، إن التغيير الأكبر في هذا الدين هو التغيير الحالي. في هذه اللحظة بالذّات يتطور الإسلام، يتغير من يوم إلى آخر أمام أعيننا، وهذا الخط المكتوب بالأمس، الذي كان لا يزال صحيحًا في ذلك الحين، قد يكون له حقيقة تاريخية واحدة فقط اليوم. لا توجد أي طريقة تعليمية لتوضيح التطور الذي يحدث ولا يزال، في مصطلح غير مؤكد. قلنا ما بدا لنا الأكثر يقينًا، لقد قمنا بتجميع بعض الحقائق الخاصة لتحديد طبيعة هذه الحركة العظيمة، وقد حاولنا صياغة الأحكام العامة فقط، بحيث يكون لديها فرصة للبقاء صادقة لفترة طويلة بما فيه الكفاية"[2].

(1) les penseurs de l'islâm, TI, p.369.
(2) La doctrine de l'islam ; p.III.

شهادات وانتقادات

كارا دي فو ما له وما عليه

قدم **رونيه غيون** تقريرًا للمطبعة الفرنسية، بعد أن سلموا له الجزأين الأول والثاني من كتاب كارا دي فو الموسوم "مفكرو الإسلام". جاء في التقرير هذه الشهادة الرائعة: "العنوان العام يتجه نحو النقد على ما يبدو، لأنه لا يبدو دقيقًا تمامًا؛ على الأقل يتم حمل كلمة "المفكرين" بمعنى واسع جدًا. يمكننا أن نرى ذلك من خلال العنوان الفرعي المذكور؛ فالشخصيات المذكورة حتى الآن، باستثناء عدد قليل، ليست كلها من طبقة المفكرين بالمعنى المعتاد؛ لا شك أن استخدام هذه الكلمة سيكون أكثر تبريرًا في المجلدات اللاحقة. سواء أكان الأمر كذلك، فهناك بعض المحاضرات المثيرة للاهتمام، خاصة في المجلد الثاني، وهو أمر مهم بشكل خاص فيما يتعلق بتاريخ العلوم؛ لا نعرف في أوروبا كل ما ندين به للعرب، الذين من خلالهم تم حفظ ونقل الكثير من المعرفة والآثار القديمة، ناهيك عن كل ما أضافوه هم أنفسهم، خاصة في النظام الرياضي. يتضح هذا بوضوح كبير من هذا العمل، الذي يُظهر المؤلف في هذا الصدد قدرًا كبيرًا من الحياد. لسوء الحظ، ليس هذا هو الحال عندما تبرز مسألة الأصول في الواجهة، فهو يُقدم

العلم العربي مستوحى بشكل شبه كلي من العلم اليوناني، وهو أمر مفرط حقًا.... عندما يتعلق الأمر بمسألة الهند، يصبح التحيز واضحًا للغاية.... لكن هذه التحفظات المختلفة، لا تركز على ما هو أكثر أهمية، يجب ألا تجعلنا نتجاهل القيمة الحقيقية للعمل الذي تم القيام به بضمير حي، ويمكن أن يؤدي خدمة رائعة للغاية"[1].

***

البارون والمسألة الجزائرية

كتب آلان مسعودي (Alain Massaoudi) في الموسوعة الفرنسية: "أعجب بالوطنيين المصريين، لكنه في المقابل التزم الصّمت حيال أمثالهم بالجزائر، ودعا إلى عدم الخلط بين الإسلام والشرق، وعدم فهمه من زاوية دينية، لكنه يجب التذكير بالفئات التفسيرية القديمة"[2].

**

"البارون المنصف"

مدح د.محمد غلاب البارون، واعتبره من بين أهم المستشرقين المنصفين للحضارة الإسلامية: "إن الباحثين المحدثين من الغربيين

(1) René Guénon, **Comptes-rendus publiés dans la Revue de Philosophie**, 1923-1924.

(2) POUILLON François et autres, **Dictionnaire des orientalistes de langue française**, Editions KARTHALA, 2ed, Paris, 2012, p. 182.

هم أكثر نزاهة وأعظم انعطافًا إلى الحقيقة من القدماء، وقررنا أن من يحيد منهم عن جادة الصواب، فإنما يهوي في هذا الخطأ قسر إرادته بدافع الجهل والسطحية، لا بالتعصب وسوء النيّة، كما كان القدماء يفعلون، وبرهنا على هذه الدعوى رأي البارون "كاري دي فو"، الذي بسط في إسهاب إلهيات القرآن، وأثبت أن هذا الكتاب قد عرض لأعوص مشاكل الفلسفة: كالألوهية، الوحدانية، والقدرة، وتنزه الله عن الإنسان، ومخالفته لكل من عاداه، وعلمه بكل شيء، وعنايته الشاملة، وكماله التام، وكمشاكل القضاء والقدر، والحياة الأخرى، والخلود في النعيم والجحيم"[1].

***

تهافت الفلاسفة ونهاية الفلسفة

وجه المفكر العربي **عبد الرحمن بدوي** نقدًا للبارون، خاصة في مسألة الفلسفة الإسلامية والغزالي، حيث بين أن حكمه لم يكن مبنيًا على قناعة معقولة: "كارا دي فو، في كتابه عن **الغزالي** (...) اكتفى بالقول بأن "المدرسة الفلسفية ظلت عاجزة تقريبًا عن الإنتاج في الشرق الإسلامي بعد الغزالي، لكنه ازدهر بعده بنصف قرن، في المغرب: ابن باجة وابن طفيل وابن رشد." فهو إذن يلاحظ واقعة ولكنه لا يربط بينها وبين الغزالي وهجومِه على الفلسفة والفلاسفة؛ وهو يَقْصر هذه الشهادة على

(1) غلاب، محمد، **الإسلام كما يراه الأوروبيون**، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 2017، ص: 60.

المشرق دون المغرب، ويقصد بالمغرب الأندلس خصوصًا: فالجدب في الفلسفة الإسلامية في نظره يقتصر على ما حدث لها في المشرق بعد الغزالي، بينما هو يمجد قيام فلاسفة كبار في المغرب بعد وفاة الغزالي. والذي يفهم، بالجملة، من كلام دي فو أمران: أما الأول، فهو أن الفلسفة بعد الغزالي قد ظلت شبه عقيمة، وأما الثاني، فهو أن فلاسفة المغرب لم يقوموا سوى بالتمديد في عمر الفلسفة في العالم الإسلامي إلى حين وفاة ابن رشد"[1].

***

الخبير في التراث الإسلامي

كتب عنه الفيلسوف المصري زكي مبارك في خاتمة كتابه ما يأتي: "ومن أجود ما كتب بالفرنسية عن الغزالي كتاب البارون كارا دي فو، هذا رجل خبير بالحياة الإسلامية، وله كتاب عن ابن سينا، أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئًا عن المدارس الفلسفية عند المسلمين، وإني لآسف حين أقرر أن المستشرقين يفهمون مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر، الذين إذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبحهم الله)"[2].

يقول فؤاد الأهواني: "والأستاذ كارا دي فو من المستشرقين

(1) بدوي، عبد الرحمن، **أوهام حول الغزالي**، محاضرة بجامعة محمد الخامس، المملكة المغربية الرباط، 1988، ص: 1.

(2) مبارك، زكي، **الأخلاق عند الغزالي**، دار كلمات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012، ص: 304.

الذين تُعد كتبهم الفلسفية عمدة في البحث. ولعل له أعذارًا في الحكم على المسلمين بإهمال شأن تربية الأطفال وتعليمهم؛ لأنه لم يقع على كتب إسلامية توضح معالم هذا الفن عند المسلمين. ولو وقع الأستاذ كارا دي فو على رسالة القابسي المخطوطة لغيرَّ من رأيه، وخفف هذا الحكم الذي يَنسب إلى المسلمين الجهل بموضوع التربية، خصوصًا تربية الأحداث والصبيان، ثم الاعتماد على المسيحيين من العرب، وما قاموا بترجمته في هذا الفن عن اليونانية وغيرها"[1].

***

البارون الموسوعي

صنفه علي بن إبراهيم النّملة مع أكبر الموسوعيين الفرنسيين في القرن العشرين: "فرنسي، اهتم بالعربية ودرسها، كما اهتم بالرياضيات، ودرس في المعهد الكاثوليكي بباريس، ويعد أحد المؤسسين لمجلة الشرق المسيحي، ونشر حوليات الفلسفة المسيحية، والمجلة الآسيوية. ومن آثاره: التقاويم العربية والقبطية والجريجورية والإسرائيلية، وراهب بحيرة والقرآن، وترجم رسالة صفة الأرغن البوقي لبرطوس، ونبذة عن الدراسات للأدب العربي المسيحي، وتعاون مع الأب لويس شيخو اليسوعي وحبيب الزيات في نشر تاريخ ابن سعيد الأنطاكي"[2].

---

(1) الأهواني أحمد فؤاد، **التربية في الإسلام**، دار المعارف، مصر، 1967 ص: 251.

(2) علي بن إبراهيم النملة، **المستشرقون والتنصير**، مركز الدراسات الاستشراقية، 1998 ـ ص: 81، 82.

خاتمة

يُعد الاحتكاك الحضاري بين الشّعوب مسلَّمة تاريخية، ورغبة إنسانية في معرفة الآخر معرفة تمكنه من رسم إستراتيجية المواجهة والتّحدي، أو إستراتيجية التّحاور والتّجاور والتّعارف. وبناءً على هذه السّنة الكونية، احتكت الحضارة الإسلامية بالحضارات العالمية، وخاصة الحضارة الغربية، وقد نتج عن هذا التلاقح ظهور حركة فكرية بالغرب؛ اهتمت بالتراث الإسلامي دراسة ونقدًا وتأريخًا، سميت بالحركة الاستشراقية، واكتملت صورتها الفعلية مع بداية القرن العشرين، خاصة وأن التواصل الحضاري شهد أرقى مظاهره، وإن اتجه صوب الصراع والتصادم في أغلب الأحيان.

ومن خلال دراسة أعمال البارون كارا دي فو، يظهر لنا جليًا هذا التلاقح الفكري المثمر، فالطبقة الاستشراقية التي ينتمي إليها البارون خدمت الثقافة الإسلامية خدمة قيمة، وحاولت قدر الإمكان تقديم مادة علمية خالية من الانحياز والتعصب.

ونحن بدورنا اليّوم يجب علينا أن نتجه نحو دراسة الغرب مثلما درسنا، وأن نجعله موضوع بحث وتقصٍّ. ويتأتى ذلك من خلال ما يصطلح عليه بعض المفكرين العرب بالاستغراب كعلم يدرس الغرب.

المصادر والمراجع

أولا- مصادر البارون كارا دي فو

1 – الكتب

- **Avicenne** ; Félix Alcan, Paris ;1900.
- **Ghazali**, Félix Alcan, Paris, 1902.
- **La doctrine de l'islam**, Gabriel Beauchesne & C^{ie}, Éditeurs Ancienne librairie Delhomme & Briguet, 1909.
- **Les penseurs de l'islam**, T I, Roth -Hotz Reprie, Lausanne, SUISSE ; 1984. (5 Tome)
- **Mahométanisme**, Edition paris, 1898, p.20.

2- المجلات

- **L'astrolabe linéaire ou bouton d' El-Tousi**, Revue Journal Asiatique , Ser IX ; t , V, 1895.
- **La légende de Bahira ou Un moine chrétien auteur du coran**, Revue de l'Orient Chrétien, Au Bureau des Œuvres d'Orient ; Paris,1897.

ثانيا- مراجع عامة

- Aldo Mieli, **La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale**, E J Brill; 1st ed. Edition (1938)
- Henry Carnoy, **Dictionnaire biographique international des écrivains**, Vol 1, Georg Olms Verlag, Hildesheim; Zürich ; New York, 1987.

- Paul CASANOVA, **Mohammed et la fin du monde** : étude critique sur l'Islam primitif, I-II, Paris, P. Geuthner, 1911.
- POUILLON François et autres, **Dictionnaire des orientalistes de langue française**, Editions KARTHALA, 2ed, Paris, 2012.
- René Guénon, **Comptes-rendus sur Les penseurs de l'islam**, publiés dans la Revue de Philosophie, 1923-1924.

ثالثا- المراجع باللغة العربية

- بدوي، عبد الرحمن، **أوهام حول الغزالي**، جامعة محمد الخامس المملكة المغربية الرباط، 1988.
- علي بن إبراهيم الحمد النملة، **المستشرقون والتنصير**، مركز الدراسات الاستشراقية، 1998.
- الأهواني أحمد فؤاد، **التربية في الإسلام**، دار المعارف، مصر، 1967.
- الطرازي أبو نصر الحسني، **الإسلام الدين الفطري الأبدي**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.س.
- الغراري، حليمة، **بناة الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية**، المكتبة العربية الكبرى.
- عباس محمود العقاد، **فرانسيس بيكون**، مؤسسة هنداوي، 2012.
- عماد الدين خليل، **قالوا عن الإسلام**، دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط1، 1992.
- قسطندي، رزق، **الموسيقي الشرقية والغناء العربي**، دار كلمات، القاهرة.
- مبارك، زكي، **الأخلاق عند الغزالي**، دار كلمات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.
- غلاب، محمد، **الإسلام كما يراه الأوروبيون**، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 2017.

كارا دي فو (1867 - 1953)
CARRA DE VAUX

البّارون بيرنارد كارا دي فو؛ رحّالة ومفكر موسوعي، وأحد أهم رجالات الاستشراق الفرنسي في القرنين التّاسع عشر والعشرين. ساهمت أعماله المُمَيّزة في التعريف بالحضارة الإسلامية بالغرب تعريفا علميا إلى حد كبير، وبيّنت في مجملها أسس الإسلام من خلال المعتقدات، والعبادات، والمعاملات. في كتبه ردد بعض الشّبهات التي أثارها كبار المستشرقين. ولكن بالرغم من ذلك كله استطاع أن يُعرف المسلمين بتراثهم المنسي، وأن يُظهر للوجود كثيرا من الأعمال الجّيدة التي غمرها الماضي السحيق. من أشهر كتبه: المحمدية (Mahométanisme) 1898؛ ابن سينا (Avicenne) 1900؛ عقيدة الإسلام، 1909؛ مفكرو الإسلام، 5 مجلدات، 1921–1926.

عبد القادر بوعرفة

من مواليد سنة 1967 بالعين الصفراء، الجزائر، أستاذ التعليم العالي بجامعة وهران. ألف ما يزيد عن أربعين كتابا، أشهرها: الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، الحضارة ومكر التاريخ، المدينة والسّياسة، العرب وأسئلة الماضي والحاضر والمستقبل، موسوعة الفرق والمذاهب والنّحل، التجربة الجمالية في الفن الإسلامي.

ISBN 978-9920-627-17-7

الدار البيضاء/بيروت
بيروت:+9611747422 / +212522810406
markazkitab@gmail.com

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع